التلخيصات الرضية

في شرح القصيده اللامية
لشيخ الإسلام ابن تيمية

للشيخ

أبي محمد المقدسي

حفظه الله

1436هـ | 2015م

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين

وبعد...

فإن القصيدة اللامية لشيخنا شيخ الإسلام ابن تيمية من القصائد الصغيرة في حجمها الجليلة في قدرها وذلك لجلالة وأهمية المسائل التي حوتها ولجلالة صاحبها رحمه الله تعالى...

وقد كنت درّستها في السجن لإخواني في كل سجن نقلت إليه كما نظمت على وزنها ومنوالها أربعين بيتا مكملات لمهمات المسائل التي يحتاجها طالب الحق في زماننا... وكنت حين أشرح لامية شيخنا رحمه الله أكمل بعدها شرح قصيدتي المكملة ولما رأيت اهتمام إخواني بتكرار ذلك في كل سجن نقلت إليه قمت بتلخيص ما أشرحه لهم في كل مرة مركزاً على المهمات فكان أن تم لي شرح لامية شيخ الإسلام ابن تيمية وشرح قصيدتي المكملة لقصيدته شرحا متوسطا لا هو بالإختصار المخل ولا بالتطويل الممل لأبقيها لإخواني في السجن يدرسها كل أخ يدخل إلى مدرسة نبي الله يوسف كما يسمى السجن عند بعض إخواننا...

وأحب هنا أن أنبه إلى أنني عندما شرعت في كتابة هذه التلخيصات لم تكن فتاوى شيخ الإسلام بين يدي إذ كنت قد نقلت إلى سجن الرميمين وخلفتها ورائي في سجن أم اللولو لكني كنت قد دونت بعض المهمات منها أثناء شرحي للامية في سجن أم اللولو في دفاتري وهو ما أودعته في هذه التلخيصات حين شرعت بتدوينها ..والنية إن شاء الله أن أعيد تتبع مقالات شيخنا حين تتيسر لي الفتاوى لأضيفها في محالها لتخرج بالصورة التي أرتضيها إن شاء الله ولا يمنع ذلك من تداولها على هذه الصورة الأولية بحسب ما تيسر لي جمعه من كلام الشيخ من دفاتري.. وإلا ففي الذاكرة مواضع أود لو تيسرت لي لأضعها في محلاتها اللائقة بها أسأل الله تعالى أن ييسر لي ذلك..

وأن يجعله في موازيني وينفع به كاتبه وقارئه وناظمه وأن يرحم شيخنا رحمة واسعة ويجمعنا به في فردوسه الأعلى..

والحمد لله أولا وآخراً

وكتب أبو محمد المقدسي

سجن الرميمين

ربيع الثاني ١٤٣٥ من هجرة المصطفى عليه الصلاة والسلام

وهذا إسنادي للقصيدة اللامية
إلى شيخ الإسلام ابن تيمية

قال الشيخ ابو محمد المقدسي :

سمعت القصيدة اللامية لشيخ الإسلام ابن تيمية وقرأتها على الشيخ نادر بن محمد غازي العَنَبْتاوي الذي سمعها على جمع من أهل العلم .. فقال : أخبرنا الشيخ عبد الشكور بن هاشم الفَيّاض البُرْماوي سماعا لكامل لامية شيخ الإسلام ابن تيمية وهو عن محمد زكريا الكاندِهْلَوي، عن خليل أحمد السهارنفوري عن نذير حسين عن محمد عابد السندي عن الشيخ الفقيه عبدالله بن محمد بن عبدالوهاب النجدي عن أبيه. وأخبرنا الشيخ غلام الله رحمتي سماعا لكاملها قال أخبرنا إدريس الكاند هلوي، أخبرنا خليل أحمد السهارنفوري، أخبرنا عبد القيوم البدهانوي، أخبرنا الشاه محمد إسحاق . وأخبرنا الشيخ عبد الله بن حمود التويجري سماعا لكاملها وهوعن والده عن الشيخ عبد الله بن عبد العزيز العنقري عن الشيخ سعد بن حمد بن عتيق أخبرنا الشيخ أحمد بن إبراهيم بن عيسى قال أخبرنا الشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ . وأخبرنا به عاليا إجازة الشيخ المعمر محمد بن عبد الرحمن آل الشيخ عن الشيخ حمد بن فارس لجميعه على الشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ عن محمد بن عبد الوهاب. عن عبد الله بن تميم الشمري الحنبلي عن أبي المواهب محمد بن عبد الباقي الحنبلي عن أبيه عبد الباقي بن عبد الباقي الحنبلي أخبرني عبد الرحمن بالهوتي عن يحى بن موسى الحجاوي عن والده الفقيه موسى الحجاوي عن أحمد بن أحمد المقدسي المعروف بالشويكي عن الشيخ أحمد بن عبد الله العُسكري عن علاء الدين المرداوي عن الشيخ أبي بكر إبراهيم بن قندس البعلي عن الشيخ علاء الدين بن اللحام البعلى عن الإمام زين الدين بن رجب الحنبلى عن الإمام ابن القيم عن شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم ابن تيميه رحمه الله.

القصيدة اللامية

لشيخ الإسلام ابن تيمية

١- يا سائلي عن مذهبي وعقيدتي ... رُزق الهدى من للهداية يسألُ

٢- اسمع كلام محقق في قوله ... لا ينثني عنه ولا يتبدلُ

٣- حب الصحابة كلِّهم لي مذهبٌ ... ومودةَ القربى بها أتوسلُ

٤- ولكلهم قدرٌ وفضلٌ ساطعٌ ... لكنما الصديق منهم أفضل

٥- وأقول في القرآن ما جاءت به ... آياته فهو الكريم المنزل

٦- وأقول قال الله جل جلاله ... والمصطفى الهادي ولا أتأول

٧- وجميع آيات الصفات أمرها ... حقاً كما نقل الطراز الأول

٨- وأرد عهدتها إلى نقالها ... وأصونها عن كل ما يُتخيلُ

٩- قُبحاً لمن نبذ القران وراءه ... وإذا استدل يقول قال الأخطلُ

١٠- والمؤمنون يرون حقاً ربهم ... والى السماء بغير كيف ينزل

١١- وأقر بالميزان والحوض الذي ... أرجو بأنيَ منه ريَّاً أنهل

١٢- وكذا الصراط يُمدُ فوق جهنمَ ... فموحدٌ ناج وآخر مهمل

١٣- والنار يصلاها الشقي بحكمة ... وكذا التقي إلى الجنان سيدخلُ

١٤- ولكل حي عاقل في قبره ... عملٌ يُقارنه هناك ويُسألُ

١٥- هذا اعتقاد الشافعي ومالك ... وأبي حنيفة ثم أحمد ينقل

١٦-فإن اتبعت سبيلهم فموفقٌ ... وإن ابتدعت فما عليك معول

تمهيد

سبب التسمية : سميت القصيدة باللامية باعتبار أن حرف الروي فيها اللام، أي أن قافيتها تنتهي بحرف اللام .

فكل ما تنتهي قافيته بحرف جاز أن يسمى به كما يقال نونية القحطاني ونونية ابن القيم وميميته كذلك ونحوها رحمهم الله جميعا .

صحة نسبتها :

- بعض العلماء نفى نسبتها وحججهم في هذا النفي ليست قوية، فهي تعتمد على أنها غير موجودة في فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية .

وهذا غير قوي لان الفتاوى جهد بشري جمعها أشخاص متأخرون من أهل عصرنا من أشهرهم الشيخ عبد الرحمن بن قاسم وعاونه ابنه وما جمعاه وغيرهم لا شك أنها لم تحو كل كتب وفتاوى شيخ الإسلام .

كما احتجوا بأن شيخ الإسلام قد استشهد بأحد أبياتها في فتاواه قائلاً:

(وقد أنشد المنشد :

قُبْحاً لِمَنْ نَبَذَ الكتابَ وراءَهُ *** وإذا اسْتَدَلَّ يقولُ قالَ الأخطَلُ)كما في " مجموع الفتاوى(6/297) "

وهذا لا حرج فيه ولا يعكر على نسبتها لشيخ الإسلام فكم من مصنف استشهد ببيت هو له قائلاً قال الناظم أو قال الشاعر .

وأيضا احتجوا لذلك باستعمال شيخ الإسلام للفظة (القديم) في وصف القرآن في أحد أبياتها وأن شيخ الإسلام نفسه قد أنكر تسمية الله بهذا الاسم، لكن ما جاء في البيت لم يرد كاسم لله بل كوصف للقرآن وسيأتي الكلام عليه والتفصيل فيه في محله .

- وفي المقابل أثبتها كثير من أهل العلم وذلك لأنه لا يمنع من نسبتها إليه مانع خصوصاً وأنها جاءت متفقة مع عقيدة شيخ الإسلام وطريقته وكأنها مقتطعة من العقيدة الواسطية لمن

عرفها، كما جاءت المنظومة متسقة مع طريقة شيخ الإسلام في ثنائه العام على أبي حنيفة والمعتاد منه مع سائر الأئمة مع أنه لا يخفى عليه ما عند أبي حنيفة من الإرجاء وغيره .

ومن أثبتها من العلماء : الشيخ السيد نعمان خير الدين الألوسي في كتابه " جلاء العينين في محاكمة الأحمدين "فأوردها خمسة عشر بيتا ص٥٨ مستدلا بها على عقيدة ابن تيمية السنية .

وأهم ما استدل به لهذا القول شهرة هذه النسبة بين أهل العلم. ووجود القصيدة في مخطوط بين كتب ورسائل لشيخ الإسلام ابن تيمية وكتب على بعضها (عقيدة ابن تيمية) وإن كان هذا المخطوط لم يكتب عليه أنه من كلام شيخ الإسلام، ولكن مكانه يشير إلى مؤلفه.

محتوى النظم : تكلم شيخ الإسلام في هذه القصيدة مجيباً على سؤال ورده فذكر خطوطاً عريضة حول مسائل من أصول الدين والعقيدة في الله وأسمائه وصفاته والقرآن والقول في الصحابة والقرابة واليوم الآخر .

صاحب النظم : هو شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام المعروف بابن تيمية تقي الدين أبو العباس الحراني الأصل والمولد الدمشقي الدار والوفاة الحنبلي الإمام العلامة فريد دهره ووحيد عصره رحمه الله تعالى رحمة واسعة .

لماذا شيخ الإسلام : قد يقال لنا لماذا اخترنا متنا للعقيدة مختلف في نسبته لشيخ الإسلام والمتون في العقيدة للأئمة كثير ؟

فنقول من الأسباب المهمة عندنا بعد إجماع العلماء المحققين على استقامة عقيدة الشيخ ومنهجه ؛ أنه رحمه الله ولد عام ٦٦١ هجري – ١٢٦٢ ميلادي في حران وتوفي في سجنه في دمشق عام ٧٢٨ هجري – ١٣٢٧ ميلادي .

فلأجل تشابه حقبته التي عاش فيها بأشياء كثيرة من زماننا منها احتلال التتار لبلاد المسلمين وظهور الياسا أو الياسق وهو أول قانون وضعي يظهر في بلاد المسلمين تشبه مصادره مصادر القوانين في زماننا، وتناحر وتنازع حكام الولايات وتشرذم العالم الإسلامي وتمزق أشلاء الأمة وانتشار البدع كل ذلك يجعل فتاوى الشيخ مجالاً خصباً للبحث عن كثير مما يناسب واقعنا من أجوبته .

وأيضا فكتابات الشيخ رغم الحرب الشعواء التي شنت عليه من خصومه والوشاية منهم إلى الحكام وسجنه تارة في القاهرة وتارة في دمشق حتى توفي في السجن وهو ثابت لم يبدل ولم يغير يجعله قدوة لأنصار الدين في كل زمان .

وكذلك ايجابيته العجيبة رغم تشابك المحن حوله واستهتاره بكل أنواع التهديد والوعيد الذي تعرض له بل وقلبه للمحن إلى منح والمكروهات إلى محبوبات يجعله من أعظم القدوات العملية للدعاة والمجاهدين .

فقد قيل له سينفيك السلطان إلى قبرص! قال : إذن أدعو أهلها إلى الإسلام . وكان يقول : أنا كالخروف لا أقع إلا على صوف .

ما يفعل بي أعدائي ، فسجني خلوه ونفي سياحة وقتلي شهادة .

قال الحافظ الذهبي عن ابن تيمية : (يصدق عليه أن يقال : كل حديث لا يعرفه ابن تيمية فليس بحديث ولكن الإحاطة لله غير أنه يغترف من بحر، وغيره من الأئمة يغترفون من السواقي ... إلى قوله : وكم من نوبة رموه عن قوس واحدة فينجيه الله تعالى، فإنه دائم الابتهال كثير الاستغاثة، قوي التوكل، ثابت الجأش له أوراد وأذكار يدمنها بكيفية وجمعية ...) أهـ

وقد حشد ابن ناصر الدين الشافعي الدمشقي في كتابه (الرد الوافر) ثناء سبع وثمانين عالما من أعلام العلماء كلهم أثنوا على ابن تيمية ولقبوه بشيخ الإسلام وكفى بهذا ردا على من كفره وكفر من لقبه بذلك (١)

قال ابن حجر العسقلاني :(ومن أعجب العجب أن هذا الرجل كان من أعظم الناس قياما على أهل البدع من الروافض والحلولية والإتحادية وتصانيفه في ذلك كثيرة شهيرة، وفتاويه فيهم لا تدخل تحت الحصر، فيا قرة أعينهم إذا سمعوا بكفره، ويا سرورهم إذا رأوا من يكفر من لا يكفره.فالواجب على من تلبس بالعلم وكان له عقل أن يتأمل كلام الرجل وتصانيفه المشتهرة أو من ألسنة من يوثق به من أهل النقل) أهـ من مقدمة (الشهادة الزكية في ثناء الأئمة على ابن تيمية) لمرعي بن يوسف الحنبلي (ت ١٠٣٣هجري)

(١) هو حنفي جامد يلقب بأبي عبد الله علاء الدين البخاري الحنفي المتوفى سنة ٨٤١هـ

ورغم أنه لم يعمر طويلاً فقد ذكر الحافظ الذهبي أن تصانيفه لوجمعت ثم قسمت على عدد أيامه لنال كل يوم أربعة كراريس..

قلت: كذلك بارك الله في الليالي والأيام لمن استثناهم سبحانه في سورة العصر من الخسران.. وهذه إحدى ثمرات الإخلاص كما نحسب شيخنا والله حسيبه.

قال ابن فضل الله العمري عن شيخ الإسلام في حبسه: (وكان قبل موته قد منع الدواة والقلم وطبع على قلبه من طابع الألم، فكان ذلك مبدأ مرضه ومنشأعرضه...فمات...)

قلت لله دره كأن الكتابة والمنافحة عن دين الله هي أنفاسه أو رئته التي يتنفس بها أو قلبه الذي ينبض بين جنبيه، وله يعيش فلما منع ذلك لم يبق له في الحياة مأرب أو حاجة خصوصا وهو مسجون معزول ممنوع عن استعمال لسانه فرحمة الله تعالى عليه وأسكنه فسيح جنانه...

وقد رثاه بقصيدة طويلة في كتاب (الكواكب الدريه في مناقب المجتهد ابن تيمية) جاء فيها:

قالوا:قبرنـــاه، قلنــا:إن ذا عجــب حقــا أللكوكــب الــدري قــد قــبروا؟

إلى قوله:

عليـــك في البحـــث أن تبـــدي غوامضـــه وما عليــــك إذ لم تفهـــم البقـــر

قـــدمت لله مـــا قـــدمت مـــن عمـــل ومـــا عليـــك بهـــم ذمـــوك أو شـــكروا) أه

وقال ابن الوردي يرثيه:

قلـــوب النـــاس قاســـيةٌ ســـلاطُ ولـــيس لهـــا إلى العليـــا نشـــاط

إلى أن يقول:

عثـــى في عرضـــه قـــوم ســـلاط لهـــم مـــن نثـــر جـــوهره التقـــاط

تقـــي الـــدين أحمـــد خـــير حـــبر خـــروق المعضـــلات بـــه تخـــاط

فـــتى في علمـــه أضـــحى فريـــدا   وحـــلُّ المشـــكلات بـــه يُنـــاط) أه

نقلاً عن الشهادة الزكية في ثناء الائمة على ابن تيمية .

- **وفاته** : توفي الشيخ سجيناً في قلعة دمشق عام ٧٢٨ هجري – ١٣٢٧ ميلادي .

نقل ابن كثير عن البرزالي في البداية والنهاية (١٣٦/١٤) : (اتفق جماعة ممن حضر جنازة ابن تيمية وشاهد الناس والمصلين : على أنهم يزيدون على نحو خمسمائة ألف وحضرها نساء كثير قدرن بخمسة عشر ألفا). يعني زيادة على نصف مليون نسمة، هذا مع أن كثيراً من الفقهاء من خصوم الشيخ والصوفية وأهل البدع يصدون الناس عن الشيخ وينفرون بزيادة أشياء تنفر منها طباع أهل الأديان فضلاً عن أهل الإسلام ومع أنه كان محبوساً في القلعة من قبل السلطان وفيها مات .ولذلك أثره في تخويف الكثيرين وصدهم عن جنازته، ومع ذلك حضرها هذا القدر العظيم .

والأمر كما قال الإمام أحمد : (بيننا وبينكم الجنائز).. أي أنها تكشف الحقائق وتكذب الدعاوى التي يدعونها من نفرة الناس عن مذهب أهل السنة ...

***

١-يـا سـائلي عـن مـذهبي وعقيـدتي   رُزِقَ الهُـدَى مَـنْ للهدايـة يَسْـألُ

يستفتح شيخ الإسلام نظمه بخطاب السائل (يا سائلي) فكأن سائلاً سأل شيخ الإسلام عن مجمل اعتقاده ومذهبه في أهم المسائل التي يتميز بها أهل السنة عن أهل البدع، ومن عادة أهل العلم إن سئلوا نظماً أن يجيبوا بنظم مثله على وزنه وقافيته فلعل السائل سأله نظماً فأجاب عليه نظما والنظم أسهل لحفظ طالب العلم وللانتشار والتداول .

ولذلك ينظم العلماء متوهم وكل من أراد نشر علم أو قول أو هجاء نظمه فإن النظم أدعى للإنتشار .

(عن مذهبي) المذهب لغة : المكان الذي يذهب إليه .

واصطلاحاً : فتوى العالم والمجتهد بدليل ومات عليها .

ويطلق غالباً على المذهب في الفروع الفقهية وربما استعمل في المذهب في العقيدة ولذلك عطف عليه شيخ الإسلام وخصصه بقوله (وعقيدتي) فهو من عطف الخاص على العام .

وأصل كلمة العقيدة في اللغة مِن العَقْدِ؛ وهو الرَّبطُ، والإبرامُ، والإحكامُ، والتوثُّقُ، والشَدُّ بقوة، والتماسُك وهي نقيض الحل ثم استعمل في جميع أنواع العقود واستعمل في التصميم واليقين والاعتقاد ومنه عُقْدَة اليمين وعقدة النكاح .

وأما العقيدة اصطلاحًا : بالمعنى العام فهي الإيمان واليقين الجازم الذي لا يتطرّق إليه شكٌّ، سواء أكان هذا الاعتقاد حقًّا أم باطلا.

والعقيدة بالمعنى الخاص عند العلماء فتَخصُّ العقيدة الإسلامية فقط من الإيمان الجازم بربوبية الله – تعالى – وأُلوهيته وأَسمائه وصفاته، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخِر، والقدر خيره وشرِّه، وسائر ما ثَبَتَ من أُمور الغيب، وأصول الدِّين، وما أَجمع عليه السلف الصالح، والتسليم لله في الأَمر، والحكم، والاتباع لرسوله صلى الله عليه وسلم

وأما وجه الارتباط بين المعنى اللُّغوي والمعنى الشرعي لكلمة العقيدة ؛فهو أن كلمة عقيدة مِن العقد، والعقد هو ربط الشيء؛ أي: الجمع بين أطراف الشيء، فكأن المعتقِد قد جمع أطرافَ قلبه، وعقَده على مُعتقَدِه، فأحكم وثاقَه بالأدلة القاطِعة لدَيه، والبراهين التي قامت على معتقدِه، وسُمِّيَت العقيدة عقيدةً؛ لأن القلب يَعْقِدُ عليها العزم، فهي تدور حول الإحكام والشَّدِّ، وعَقَدتُ الحبل: إذا رَبطْتَهُ بشدة.

وللعقيدة الإِسلامية أَسماء مُتعدِّدة عند أَهل السُّنَّة والجماعة، منها: العقيدة، والاعتقاد، والعقائد، والتوحيد، والسنَّة، والشريعة، والإيمان، وأصول الدِّين، وما مِن اسمٍ مِن هذه الأسماء إلا وتجد بعض الأئمة قد صنَّف كتابًا وسماه بمثله، فكم مِن كتاب لأئمة السلف اسمه الإيمان أو التوحيد أو أصول الدِّين أو نحو ذلك ومِن المؤلَّفات التي ألَّفها العلماء تحت اسم العقيدة: "اعتقاد أئمة الحديث"؛ لأبي بكر الإسماعيلي، و"شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة"؛ لأبي القاسم اللالكائي، و"عقيدة السلف أصحاب الحديث"؛ لأبي عثمان الصابوني.

و مصطلح العقيدة؛ لم يرد في كتاب الله – عز وجل – ولا في سنَّة رسول الله – صلى الله عليه وسلم ولكن لا مشاحَّة في الاصطلاح فإذا كان هذا الاصطلاح استُخدِمَ في معنى صحيح، ولم يتضمَّن معنى فاسدًا، ولم يُخالف الشرع، ولم يختصَّ به أهل البدع، فلا بأس به، ولذلك استعمل العلماء مصطلح العقيدة دون نكير .

اما إذا كان هذا الاصطلاح استُخدِمَ في معنى غير صحيح، أو تضمَّن معنًى فاسدًا، أو اختص به أهل البدع، أو خالف الشرع، فمردود.

وشيخ الإسلام ابن تيمية من العلماء الذين استعملوا هذا المصطلح من غير تحرج كما في كتابه العقيدة الواسطية وغيرها فقال في مطلعه : (أما بعد ؛ فهذا اعتقاد الفرقة الناجية المنصورة إلى قيام الساعة ؛ أهل السنة والجماعة) أهـ.

(رُزِقَ الهدى ... الخ) إما أن يكون دعاءً أو إخبارا

فإن كان دعاء: فهو تلطف من شيخ الإسلام بالسائل كعادة أهل العلم في إفتتاح متونهم وكتاباتهم بالدعاء للطالب أو القارئ

نحو قولهم (اعلم رحمك الله ...) أو (اعلم هدانا الله وإياك ..) أو (اعلم علمنا الله وإياك ..) الخ

وإن كان إخباراً ففيه إشارة إلى قوله تعالى (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا) والى قوله في الحديث القدسي (يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم) رواه مسلم

والى قول النبي صلى الله عليه وسلم : (... ومن يتحرّ الخير يعطه) فمن يسأل الله تعالى الهداية بصدق يوفقه الله تعالى إليها ويشرح صدره للإسلام .

(من للهداية) الهداية نوعان:

الأولى: هداية عامة (هداية الدلالة والإرشاد) وهي بيان سبيل الخير من سبيل الشر وتعريف الناس بربهم وحقه عليهم وبدينهم وبما أرسل به نبيهم صلى الله عليه وسلم قال تعالى(وهديناه النجدين)وهذا النوع من الهداية يستطيعه كل الخلق من الأنبياء والدعاة وغيرهم إن شاءوا. قال تعالى عن نبيه : (وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ) فالمثبت هنا هو الهداية العامة.

الثانية: هداية خاصة (هداية التوفيق والتسديد) وهي شرح القلوب وتوفيقها لقبول الهداية العامة ومحبتها واستنارة القلب بها وهذه يمن الله بها على من أقبل ولم يعرض عن الهداية العامة، ولا يستطيعها إلا الله تعالى قال الله تعالى لنبيه: (إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ) فالمنفي هنا هو الهداية الخاصة ومن أعرض عن الهداية العامة ولم يقبلها

أو صد عنها وحاربها فلا يوفقه الله تعالى بعدله إلى الهداية الخاصة قال تعالى: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا} ﴿٥٧﴾ سورة الكهف

وقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية : (ولهذا قيل الهدى أربعة أقسام :

(احدها : الهداية إلى مصالح الدنيا فهذا مشترك بين الحيوان الناطق والأعجم وبين المؤمن والكافر.

والثاني : الهدى بمعنى دعاء الخلق إلى ما ينفعهم وأمرهم بذلك وهو نصب الأدلة وإرسال الرسل وإنزال الكتب فهذا أيضا يشترك فيه جميع المكلفين سواء آمنوا أو كفروا كما قال تعالى : (وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ) وقال تعالى (إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ) وقال تعالى (إِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) فهذا مع قوله (نَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ) يبين أن الهدى الذى أثبته هو البيان والدعاء والأمر والنهى والتعليم وما يتبع ذلك ليس هو الهدى الذى نفاه وهو القسم الثالث الذى لا يقدر عليه إلا الله .

والقسم الثالث : الهدى الذى هو جعل الهدى فى القلوب وهو الذى يسميه بعضهم بالإلهام والإرشاد وبعضهم يقول هو خلق القدرة على الإيمان كالتوفيق عندهم . ....إلى قوله : (وهذا الهدى الذى يكثر ذكره فى القرآن فى مثل قوله (اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ) وقوله (فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا) وفى قوله (من مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا) وأمثال ذلك) اهـ .

***

٢- إســـمع كـــلامَ مُحقـــقٍ فـــي قولـــــــــــــــــــــه لا ينثنـــــي عنـــــهُ ولايتبـــــدلُ

شرع شيخ الإسلام هنا إلى إجابة السائل إلى ما يريد ورغبه إلى قبوله بأشياء؛ أولها دعوته إلى السماع : (إسمع) والسماع منه ما هو سماع مجرد بالأذن مع إعراض القلب ولذلك لا ينفذ إلى القلب ولا يورث فقها ولا وعيا كما قال تعالى (وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا) والسبب هو جدالهم بالباطل وتشويههم للحق (حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ

الْأَوَّلِينَ) وقال تعالى (وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَ..)

ومنه ما هو سماع قبول وإقبال من القلب: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ} ﴿٣٧﴾ سورة ق، فمن أقبل بقلبه وسمعه على كلام الله وكلام رسوله شرح الله صدره وأسمع قلبه وأوعاه، وأصابته دعوة النبي صلى الله عليه وسلم التي قال فيها صلى الله عليه وسلم (نضر الله عبدا سمع مقالتي فوعاها وحفظها ثم أداها إلى من لم يسمعها) وفي رواية (فبلغه كما سمعه فرب حامل فقه غير فقيه ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه) رواه الإمام أحمد وغيره.

(كلام محقق في قوله) المحقق هو الذي يتبع الحق ويحقه أي ينصره ويدعو إليه ولا يتقيد بمذهب يقلد صاحبه في كل شيء، وشيخ الإسلام لا شك أنه محقق له اختيارات خالف فيها مذهب أحمد وغيره إتباعا للدليل وإحقاقا للحق ولم يبدل ولا انثنى عن الحق رغم ما تعرض له من عداوة المتعصبين للمذهب ووشايتهم إلى السلاطين ورغم القيد والحبس حتى وافته منيته في حبسه وهو ثابت على الحق لم يبدل تبديلا .

يقول شيخنا رحمه الله تعالى : (إنك تجد أهل الكلام أكثر الناس انتقالاً من قول إلى قول، وجزمًا بالقول في موضع، وجزمًا بنقيضه، وتكفير قائله في موضع آخر، وهذا دليل عدم اليقين، فإن الإيمان كما قال فيه [قيصر] لما سأل أبا سفيان عمن أسلم مع النبي صلى الله عليه وسلم: هل يرجع أحد منهم عن دينه سُخْطَة له، بعد أن يدخل فيه ؟ قال: لا.

قال: وكذلك الإيمان إذا خالط بشاشته القلوب، لا يسخطه أحد".

ولهذا قال بعض السلف – عمر بن عبد العزيز أو غيره -: من جعل دينه غرضًا للخصومات أكثر التنقل.

وأما أهل السنة والحديث فما يعلم أحد من علمائهم ولا صالح عامتهم رجع قط عن قوله واعتقاده بل هم أعظم الناس صبرا على ذلك ، وإن امتحنوا بأنواع المحن ، وفتنوا بأنواع الفتن ، وهذه حال الأنبياء وأتباعهم من المتقدمين : كأهل الأخدود ونحوهم ، وكسلف هذه الأمة من الصحابة والتابعين وغيرهم من الأئمة ؛ حتى كان مالك رحمه الله يقول : (لا تغبطوا أحدا لم يصبه في هذا الأمر بلاء) .) اهـ مجموع الفتاوى .

***

٣- حبُّ الصحابةِ كلّهِم لي مذهبٌ   ومودةُ القُربى بها أتوسّلُ

هذا البيت يشبه قول القحطاني الأندلسي في نونيته:

حب الصحابة والقرابة سنة   ألقى بها ربي إذا أحياني

(حب الصحابة) الصحابي في الاصطلاح (اصطلاح المحدثين وبعض الأصوليين): هو كل من لقي النبي صلى الله عليه وسلم وآمن به ومات مسلماً.

وهذا التعريف ذكر مطلق اللقيي ولم يقيدها بزمن فيشمل حتى من لقيه ولو مرة واحدة للحظة، وذلك لأن لذلك شرف عظيم اصطفى الله له قوما معينين .

وقولنا في هذا التعريف :(لقي) أجمع من قولنا: رأى، ليدخل فيه من لقيه ولم يره لعذر كالعمى كعبد الله بن مكتوم.

وعند الجمهور من أهل (أصول الفقه) يزيدون في تعريف الصحبة من لقيه (وطالت صحبته أو لازمه مدة طويلة) ليصبح عرفاً إطلاق الصحبة عليه، من غير تحديد بمدة معينة على الأصح عندهم.

ولا شك أن لقياه ولو مرة واحدة مزّية وشرف تدخل المرء في معنى الصحبة العام. فللصحبة عموم وخصوص.

كما ثبت في حديث أبي سعيد الذي خاطب فيه النبي صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد في شأن عبد الرحمن بن عوف وكلاهما صاحب في الاصطلاح ؛ ولكن هذا الحديث يدل على أن للصحبة خصوص وعموم..(كان بين خالد بن الوليد وبين عبد الرحمن بن عوف شئ فسبه خالد) فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:(لا تسبوا أحدا من أصحابي فإن أحدكم لو أنفق مثل أحد ذهبا ما أدرك مدّ أحدهم ولا نصفه) رواه مسلم كاملا والبخاري من غير ذكر السبب.

وكونه (يموت على الإسلام) شرط لثبوت الصحبة فعبد الله بن جحش الذي كان زوج أم المؤمنين رملة بنت أبي سفيان أم حبيبة رضي الله عنها وكان صحابيا ثم ارتد في الحبشة وتنصر ومات على النصرانية ليس بصحابي.

أما إذا لقيه مسلماً ثم ارتد وعاد إلى الإسلام بعد وفاته صلى الله عليه وسلم مثل الأشعث بن قيس فالأظهر نفي صحبته لأنها من أشرف الأعمال والردة محبطة للعمل، وذهب بعض العلماء إلى بقاء الصحبة إن عاد إلى الإسلام حتى ولو بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم.

وقال شيخ الإسلام في العقيدة الواسطية: (ومن أصول أهل السنة والجماعة سلامة قلوبهم وألسنتهم لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كما وصفهم الله به في قوله تعالى: {وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ} ﴿١٠﴾ سورة الحشر

وفي هذا البيت زيادة على سلامة القلب ففيها حبهم أجمعين لا كما تفعله الرافضة فتحب عددا قليلا منهم وتتشيع لهم وتبغض وتسب الباقين، أما أهل السنة فيحبونهم أجمعين المهاجرين والأنصار والقرابة .

وقوله (كلِّهم لي مذهب)

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في الفتاوى(٤/٥٢٦): (قال غير واحد من الأئمة إن كل من صحب النبي صلى الله عليه وسلم أفضل ممن لم يصحبه مطلقاً وعينوا ذلك في مثل معاوية وعمر بن عبد العزيز مع أنهم معترفون بأن سيرة عمر بن عبد العزيز أعدل من سيرة معاوية (قالوا: لكن ما حصل لهم بالصحبة من الدرجة أمر لا يساويه ما يحصل لغيرهم بعلمه واحتجوا بما في الصحيحين) أهـ وذكر حديث أبي سعيد المتقدم.

وقال في العقيدة الواسطية (الفتاوى ٣/١٥٥): (وهم مع هذا لا يعتقدون أن كل واحد من الصحابة معصوم من كبائر الإثم وصغائره بل تجوز عليهم الذنوب في الجملة ولهم من السوابق والفضائل ما يوجب مغفرة ما يصدر منهم إن صدر...

إلى قوله وقد ثبت بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم(أنهم خير القرون) وأن المد من أحدهم إذا تصدق به كان أفضل من جبل أحد ذهبا ممن بعدهم) أهـ.

ولأجل أن حبهم كلهم لنا مذهب فنحن لا نخوض فيما شجر بينهم من خلاف بل نترضى عليهم أجمعين، ونقول هم ما بين مجتهد مصيب له أجران ومجتهد مخطئ له أجر ونقول كما قال تعالى : {تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ} ﴿١٣٤﴾ سورة البقرة.

وكما قال الشافعي: (تلك فتنة سلم الله منها سيوفنا ودماءنا فنسأله تعالى أن يسلم منها قلوبنا وألسنتنا).

ويذكر أن قائله عمر بن عبد العزيز لما سئل عما وقع بين الصحابة من حوادث وحروب، قال: (تلك أمور سلم الله منها سيوفنا من دمائهم، فلماذا لا نسلم ألسنتنا من الخوض فيها)

ويقول الإمام أبو محمد الأندلسي القحطاني في قصيدته النونية:

قـــل خـــير قـــول في صــــحابة أحمـــد وامـــدح جميـــع الآل والنســـوان
دع مـــا جـــرى بـــين الصـــحابة في الـــوغى بســـيوفهم يـــوم التقـــى الجمعـــان
فقتــــيلهم مــــنهم وقــــاتلهم لهــــم وكلاهمـــا في الحشـــر مرحومـــان

وقوله: (ومودة القربى) :

قال شيخ الإسلام في الواسطية (٣/١٥٤ الفتاوى):(ويحبون أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ويتولونهم ويحفظون وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال يوم غدير خُمّ:(أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي) أخرجه مسلم ... إلى أن قال شيخ الإسلام: (ويتبرؤون من طريقة الروافض، الذين يبغضون الصحابة ويسبونهم، ومن طريقة النواصب، الذين يؤذون أهل البيت بقول أو عمل، ويمسكون عما شجر بين الصحابة، ويقولون إن هذه الآثار المروية في مساويهم منها ما هو كذب ومنها ما قد زيد فيه ونقص وغير عن وجهه ؛ والصحيح منه هم فيه معذورون إما مجتهدون مصيبون وإما مجتهدون مخطئون) أهـ (١٥٥/٣)

والقربى : هم آل النبي المسلمون كفاطمة وعلي والحسن والحسين وغيرهم كالعباس بن عبد المطلب وأبنائه وكل من حرمت عليه الصدقة من بني هاشم وبني المطلب.

وكذلك يدخل فيهم أزواجه بنص القرآن كما يدل عليه سياق الآيات في سورة الأحزاب قبل وبعد قوله تعالى : (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا)

فقد جاءت هذه الآية في سياق ذكر نساء النبي صلى الله عليه وسلم.

هذا هو المعنى الاصطلاحي أو (الخاص) للقرابة أو آل البيت الذي قصده شيخ الإسلام في هذا البيت .

وهناك معنى عام يذكره بعض العلماء والشعراء غير مراد هنا نحو قولهم:

آل النـــبي هـــمُ أتبـــاع ملتـــه ... علـى الشـريعة مـن عجـم ومـن عـرب

لــو لم يكـــن آلـــه إلا قرابتـــه ... صـلى المصـلي علـى الطـاغي أبي لهـب

وفي البيت الثاني نظر لأننا نشترط في آل بيت النبي صلى الله عليه وسلم أن يكونوا من المسلمين ولا يدخل فيهم قطعا عمه أبو لهب... ولا غيره ممن ينتسب لآل البيت بالنسب وحده دون الإسلام .

ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث: (إن آل بني فلان ليسوا لي بأولياء إنما وليىَّ الله وصالح المؤمنين) رواه أحمد وغيره عن عمرو بن العاص

ومن أقوال بعض أهل الحديث وأظنه ابن حجر :

أهـل الحـديث همـو أهـل النـبي وإن ... لم يصـحبوا نفسـه أنفاسـه صـحبوا

فهذا فيه ثناء على أهل الحديث ووظيفتهم وتعظيم لشرفهم ولكنهم مع ذلك لا يدخلون كما هو معلوم في المعنى الخاص لآل البيت.

ولذلك قال قبله :

يـا سـادة عنـدهم للمصـطفى نسـبُ ... رفقـا لمـن عنـده للمصـطفى حسـبُ

قوله: (بها أتوسل)

التوسل نوعان:

الأول : توسل بدعي وينقسم إلى :

- توسل شركي: هو دعاء الأموات أو الملائكة أو الأنبياء أو الأولياء وسؤالهم واتخاذهم وسطاء فهذا شرك أكبر من جنس قول المشركين (مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى)

- وتوسل هو (ذريعة إلى الشرك) : وهو أن يدعو الله ولا يدعو الأموات ولكن يسأل الله في دعائه بجاه بعض الأموات من أولياء ونحوهم أو يطلب من بعض الأموات أن يدعو له فهذا ذريعة قد توصل وتؤول إلى الشرك وهو محرم وبدعة فالصحابة رضي الله عنهم بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم لم يفعلوه، ولو كان خيرا ومشروعا لسبقونا إليه رضي الله عنهم أجمعين .

والثاني : توسل سني :

وهو سؤال الله تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العلى كما قال تعالى: (ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها...) كأن تقول اللهم إنا نسألك بأنك أنت الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم الملك القدوس أن تغفر لي وأن تسددني وأن تهدني....

أو تتوسل بذكر أسماء الله وصفاته المتعلقة بذلك الدعاء، كأن تقول في طلب الرحمة والمغفرة، يا رحمن، يا رحيم ارحمني، يا غفور اغفرلي وكذلك يا رزاق ارزقني، ويا تواب تب عليّ... ونحوه وهكذا يقدِّمُ الداعي بين يدي دعائه ما يناسبه من أسماء الله، وصفاته، فذلك أدعى لقبول الدعاء .

ومنه التوسل إلى الله بالعمل الصالح : بأن تدعو الله بذكر أخلص أعمالك بين يدي الدعاء، كما علمنا الله في القرآن فقال تعالى : {رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ} ﴿١٩٣﴾ سورة آل عمران، فهذا توسل بالإيمان بالله .

وكما في حديث البخاري ومسلم في الثلاثة الذين أووا إلى غار فسدت صخرة عليهم باب الغار فدعوا الله بأخلص أعمالهم.

ويدل عليه قوله تعالى: (إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه)

وقول شيخ الإسلام هنا (ومودة القربى بها أتوسل)

من هذا النوع السني.. فإنه لم يتوسل إلى الله بالقرابة ولا بالصحابة، ولكن بمودتهم وحبهم، ومودتهم وحبهم عمل صالح، فنحن نتقرب إلى الله بحب الصحابة والقرابة.

قال تعالى: (قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى).

وفي الصحيحين عن البراء عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال في الأَنْصَار : (لا يُحِبُّهم إلاَّ مؤمن، ولا يبغضهم إلاَّ مُنافق، مَن أحبهم أحبه الله، ومن أبغضهم أبغضه الله) ففيه أن المحبة تكون قربة وعمل صالح وجزاؤها من جنسها .

***

٤- ولكلهـم قـدرٌ وفضـلٌ سـاطعٌ لكنمـا الصّـديق مـنهم أفضـل

وورد هذا البيت أيضا هكذا : (ولكلهم قدر علا وفضائل) ولكن الأول هو اللفظ الذي ورد في جلاء العينين .

يذكر شيخ الإسلام في هذا البيت أن لجميع الصحابة والقرابة قدر وفضل واضح معلوم...

قال رحمه الله في الواسطية: (ويقبلون ما جاء في الكتاب والسنة والإجماع من فضائلهم ومراتبهم، ويفضلون من أنفق من قبل الفتح وهو صلح الحديبية وقاتل، على من أنفق من بعد وقاتل، ويقدمون المهاجرين على الأنصار، ويؤمنون بأن الله قال لأهل بدر وكانوا ثلاث مائة وبضعة عشر ؛ (اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم) وبأنه لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة... ويشهدون بالجنة لمن شهد له رسول الله صلى الله عليه وسلم كالعشرة...)

وقال:(ويقرون بما تواتر به النقل عن أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب رضي الله عنه وغيره من أن خير هذه الأمة بعد نبيها: أبو بكر ثم عمر) أهـ

ولذلك قال الشيخ هنا في نظمه: (لكنما الصديق منهم أفضل)

فقد روى البخاري عن محمد بن الحنفية قال: قلت لأبي: أي الناس خير بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال: أبو بكر، قلت: ثم من؟ قال: ثم عمر..) وفيه أيضاً عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، قال:(كنا نخيّر بين الناس في زمن النبي صلى الله عليه وسلم، فنخير أبا بكر، ثم عمر بن الخطاب، ثم عثمان بن عفان رضي الله عنهم)

وأبو بكر هو عبدالله بن عثمان القرشي التيمي وهو أول الرجال إسلاما وصديق هذه الأمة وحبيب نبيها صلى الله عليه وسلم الذي قال تعالى فيه (إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا)

والأحاديث بفضائله كثيرة .. منها حديث أبي هريرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: [من أنفق زوجين من شيءٍ من الأشياء في سبيل الله دعي من أبواب – يعني الجنة، يا عبد الله هذا خير، فمن كان من أهل الصلاة دعي من باب الصلاة، ومن كان من أهل الجهاد دعي من باب الجهاد، ومن كان من أهل الصدقة دعي من باب الصدقة، ومن كان من أهل الصيام دعي من باب الصيام فقال أبو بكر: ما على هذا الذي يدعى من تلك الأبواب من ضرورة، وقال هل يدعى منها كلها أحد يا رسول الله؟ قال: [نعم، وأرجو أن تكون منهم يا أبا بكر] رواه البخاري.

وأما ثباته زمن الردة وموقفه بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم وارتداد العرب فهو من أعظم مناقبه رضي الله عنه وهو معروف مشهور حفظ الله به الإسلام وأهله فرضي الله عنه، وعن سائر الصحابة أجمعين فهم خير الخلق بعد الأنبياء ..

قال شيخ الإسلام في الوسطية: (ومن نظر في سيرة القوم بعلم وبصيرة، وما من الله به عليهم من الفضائل، علم يقينا أنهم خير الخلق بعد الأنبياء، لا كان ولا يكون مثلهم، وأنهم هم الصفوة من قرون هذه الأمة التي هي خير الأمم وأكرمها على الله) أهـ

ويقول أيضاً : (ويتبرءون . أي أهل السنة . من طريقة الروافض الذين يبغضون الصحابة ويسبونهم، وطريقة النواصب الذين يؤذون أهل البيت بقول أو عمل) أهـ

- ومن ثمرات هذا الاعتقاد : التقرب إلى الله بحب الصحابة لنيل محبة الله بذلك لأن من أحبهم أحبه الله .. ومنها الاقتداء بهم والتأسي بهديهم والاستعانة بأفهامهم لفقه القرآن الذي عايشوا تنزيله والسنة التي شاهدوها ونقلوها لنا، ومن ذلك سلامة قلوبنا تجاههم جميعا وتميزنا بذلك عن النواصب والروافض فلا نخوض فيما شجر بينهم ونتأدب معهم ونترضى عليهم .

***

٥- وأقـــول فـــي القـــرآن مـــا جـــاءت بـــــــــــــــــــه   آياتُـــهُ فهـــو الكـــريمُ المنـــزلُ

يشير شيخ الإسلام بهذا البيت إلى أمثال قوله تعالى : (وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ)

وقوله تعالى : (يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ...)

وقوله سبحانه : (وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ)

وقوله تعالى : (وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ)

ونحوها من الآيات التي ذكرها شيخ الإسلام وغيرها في العقيدة الواسطية عند كلامه على (كلام الله) ...

وفيها بيان أن القرآن كلام الله وأنه منزل من عند الله غير مخلوق .

وقوله (كريم) ورد وصف القرآن بذلك في قوله تعالى : (إنه لقرآن كريم) وغيرها من الآيات .

وقد جاء في النظم في جلاء العينين (القديم) بدل الكريم .

وأسماءَ الله تعالى توقيفيةٌ، أي لا تَثْبُتُ إلا بنصوص الكتاب والسُّنَّة، والاسم يُشتقُّ منه الصّفة والفعل، ولا يُشتقُّ من الصّفة والفعل اِسمًا، وذلك لأنّ باب الصفات أوسعُ من باب الأسماء، و«القديم » مراد من استعمله من العلماء أنه لم يُسبَق بِعدَم أي: غير مخلوق؛ وبعضهم يعبر عنه بقوله : واجب الوجود، وهذا المعنى يستغنى عنه بإسم (الأَوَّلُ) الوارد في القرآن في سورة الحديد، وفي قوله صَلَّى اللهُ عليه وآله وسَلَّمَ : « اللَّهُمَّ أَنْتَ الأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ »، فليس «القديم » من أسماء الله الحسنى، وإنّما أدخله المتكلِّمون في أسمائه، وحتى استعماله بمعنى غير المخلوق رده بعض العلماء لكون العرب لم يستعملوا هذا الاسم إلاّ في المتقدِّم على غيره لا فيما لم يسبقه عدم، فإذا وجد جديد قيل للأول قديم كما قال تعالى: (حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ) [يس: ٣٩]، فالعرجون القديم الذي يبقى إلى حين وجود العرجون الثاني، ثمّ استعمل «القديم » بمعنى غير مخلوق وهو واجب الوجود في مقابلة «الحادث » وهو ممكن الوجود، وهو ما كان وجوده بعد العدم ومعناه أنّه مخلوق وهذه ألفاظ حادثة يستعملها أهل الكلام ..

قال ابن أبي العز: (وقد أدخل المتكلمون في أسماء الله (القديم) وليس هو من الأسماء الحسنى ...- إلى أن قال- وأما إدخال القديم في أسماء الله تعالى فهو مشهور عند أكثر أهل الكلام وقد أنكر ذلك كثير من السلف والخلف منهم ابن حزم) اهـ

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في المنهاج: (وأما كون القديم الأزلي واحدا فهذا اللفظ لا يوجد لا في كتاب الله ولا في سنة نبيه بل ولا جاء اسم القديم في أسماء الله تعالى وإن كان من أسمائه الأول.) اهـ

ولكن ربما استعمله العلماء ومنهم ابن تيمية من باب مخاطبة أهل الاصطلاح باصطلاحهم المحمول على معنى صحيح فأهل الكلام يريدون بالقديم كما تقدم ما لم يزل أو ما لم يسبقه وجود غيره، وأيضا لأن إطلاقه على الله قد يكون من باب الإخبار وهذا الباب أوسع من باب الأسماء والصفات، لذلك فقد تسامح بعض اهل العلم في استعماله في هذا الباب، فأكثر من استعمل لفظ «القديم » يُطْلقه من باب الإخبار عن الله عز وجل لا من باب الصفات التوقيفية ولا من باب كونه اسمًا، وباب الأخبار أوسع من باب الصّفات، وباب الصفات أوسع من باب الأسماء ..

قال العلامة ابن القيم رحمه الله: (إن ما يطلق عليه سبحانه في باب الأسماء والصفات توقيفي وما يطلق عليه من باب الإخبار لا يجب أن يكون توقيفيا كالقديم والشيء والموجود) اهـ. (بدائع الفوائد:١٦٣/٣)

وقد ورد في الحديث (نعوذ بِوَجْهِك الْكَرِيمِ وَسُلْطَانِك الْقَدِيمِ) فالسلطان هنا المقصود به الخَلْقْ؛ أو الملكوت أو يُقْصَدْ به الصفة المتعلقة بذلك، فلا يعني هذا أن القديم من أسماء الله، أو أنه من صفاته سبحانه؛ لأنه وُصِفَ به سلطانه سبحانه، وهذه ليست راجعة إلى الاسم الذي يدل على الذات، بل هذا وصف للصفة وليس وصفاً للموصوف، فالقديم هو السلطان.

ويلاحظ أن شيخ الاسلام استعمله في النظم لا على أنه اسم لله بل استعمله على سبيل الإخبار عن كلام الله ويريد بذلك أنه غير مخلوق ..

وكلام الله يقال عنه بأن نوعه قديم، بمعنى: أن الله لم يكن غير متكلم ثم تكلم، بل هو متكلم بلا ابتداء، ويتكلم بلا انتهاء، فنوع كلامه قديم، وأما آحاده فحادثة. أو بمعنى آخر أن كلام الله من جهة كونه صفة للذات فهو قديم ومن جهة كونه صفة فعل فهو محدث أي يتجدد ؛ كما قال تعالى : (وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث إلا كانوا عنه معرضين)

فالكلام الذي كلم الله به موسى عليه السلام حصل في زمن موسى، هو من آحاد الكلام التي وجدت في زمن موسى، والكلام الذي سمعه رسول الله صلى الله عليه وسلم من الله ليلة المعراج، سمعه صلى الله عليه وسلم عندما تكلم الله به في ليلة المعراج، لذلك عند أهل السنة: أن نوع الكلام قديم، وأن آحاده حادثة، وعلى هذا التفصيل يكون القرآن كلام الله من آحاد الكلام، وإذا وصف بأنه قديم فإنما يراد به أنه غير مخلوق أو يراد أصل صفة الكلام لله ..

فصفة الكلام لله من الصفات المشتركة التي تعود إلى صفات ذات الله وصفات أفعاله.. فالله لم يزل متكلما فصفة الكلام لازمة لذاته، ويتكلم متى يشاء فصفة الكلام أيضا تابعة لمشيئته وإرادته يتكلم بما شاء متى شاء ولذلك قال تعالى : {مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ} ﴿٢﴾ سورة الأنبياء، محدث : أي متجدد،

وهذا مما حمله المعتزلة على غير محمله فاحتجوا به على قولهم بخلق القرآن وادعوا أن محدث : أي مخلوق، والصواب أن محدث معناها حديث جديد متجدد كما قال النبي صلى الله عليه وسلم عن المطر : (إنه حديث عهد بربي) .

وقد انتشرت فتنة القول بخلق القرآن في زمن المأمون الذي أجبر الناس على القول بها وامتحن العلماء حتى قتل خلق منهم على القول بها وعذب آخرون وسجنوا ؛ منهم الإمام احمد بن حنبل رحمة الله إمام أهل السنة فثبته الله وأبى إجابتهم إلى ما يريدونه وثبت على قول أهل السنة، بأن القرآن منزل غير مخلوق فأوذي وعذب وضرب وسجن وكان لثباته أثر عظيم على دحر هذه المقالة حتى قال بعض العلماء وهو علي بن المديني : (إن الله أعز هذا الدين برجلين ليس لهما ثالث : أبو بكر الصديق يوم الردة، وأحمد بن حنبل يوم المحنة).

وممن ثبت أيضا وأبى إجابتهم إلى القول بهذه البدعة محمد بن نوح العجلي، قال الذهبي رحمه الله في العبر في خبر من غبر ٢٩٦/١ : محمد بن نوح العجلي ناصر السنة، حمل مقيداً مع الإمام أحمد بن حنبل متزاملين، فمرض ومات بغابة في الطريق . فوليه الإمام أحمد ودفنه . وكان في الطريق يثبت أحمد ويشجعه.

وممن ثبت الامام الحافظ أبو نعيم الفضل بن دكين الملائي رحمه الله ٢١٩هـ

وكذلك الإمام الحافظ أبو عبد الله نعيم بن حماد الخزاعي رحمه الله ٢٢٩هـ. مات في السجن وأوصى أن يدفن في قيوده .

والإمام أبو عبد الله أحمد بن نصر الخزاعي رحمه الله ٢٣١هـ. قتل في ذلك وختم له بالشهادة وعلق في أذنه ورقه فيها : هذا رأس أحمد بن نصر دعاه الامام إلى القول بخلق القرآن ونفي التشبيه فأبى إلا المعاندة فعجله الله إلى ناره ؛ وبقي الرأس منصوباً ببغداد والبدن مصلوباً بسامراء سنين . قال المروذي: سمعت أحمد ذكر أحمد بن نصر فقال : رحمه الله لقد جاد بنفسه . السير ١٦٨/١١.

وملخص قول أهل السنة في القرآن هو : (أن القرآن كلام الله منزل غير مخلوق منه بدأ واليه يعود)

وقولنا (منزل) تقدمت بعض الآيات الدالة علية ومن ذلك قوله تعالى (شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ) ومن قوله تعالى (إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ) وقال تعالى (تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ) وقال سبحانه : {وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا} ﴿١٠٦﴾ سورة الإسراء.

وقولنا (غير مخلوق) دليله قوله تعالى: (أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ) ففرق الله تعالى بين الخلق والأمر، والعطف يقتضي المغايرة، والقرآن من الأمر بدليل قوله تعالى (وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا) فإذا كان القرآن أمراً وهو قسيم للخلق، في الآية المذكورة ؛ صار غير مخلوق لأنه لو كان مخلوقا ما صح هذا التقسيم .

وقولنا (منه بدأ) أي هو الذي ابتدأ به وتكلم به أولا .

وقد ورد في القرآن إضافته إلى الله، وتارة إضافته إلى جبريل وإلى الرسول صلى الله عليه وسلم .

فالأول نحو قوله تعالى : (فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ) التوبة

والثاني نحو قوله : (إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ) التكوير.

والثالث نحو قوله : (إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ) الحاقة.

وهاتان الإضافتان الثانية والثالثة إضافة تبليغ لا إضافة ابتداء .

وقولنا (إلية يعود) يفسر على وجهين كلاهما صحيح

الأول : ما ورد في بعض الأحاديث بأنه يسرى على كتاب الله في ليلة فيرفع فلا تبقى منه في الأرض آية، من ذلك ما رواه ابن ماجه في كتاب الفتن .

الثاني : معناه أنه يعود إلى الله وصفاً أي أنه لا يوصف به أحد سوى الله فالمتكلم بالقرآن هو الله .

وقد استدل المعتزلة بأدلة من القرآن حاولوا بها ترويج بدعتهم بالقول بخلق القرآن، فقد كانوا يسألون مخالفهم : القرآن شيء أو لا شيء . فلا يجرؤ أحد على أن يقول أنه لا شيء بطبيعة الحال، وبالتالي يقولون له إن الله تعالى يقول (اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ) والقرآن شيء فيدخل في عموم (كل شيء) ..

وأهل السنة أجابوهم بأن القرآن كلام الله وهو صفة من صفاته وصفات الخالق غير مخلوقة وقوله تعالى (كُلِّ شَيْءٍ) عام قد يراد به الخاص . مثل قوله تعالى (تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا) ومع ذلك قال تعالى (فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ) فمع أنه قال: تدمر كل شيء ؛ فقد ذكر أن مساكنهم لم تدخل في هذا العموم .

ومثله قوله تعالى عن ملكة سبأ (وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ) ومعلوم أنها لم يكن عندها أشياء كثيرة مما فوجئت به في ملك سليمان .

- ومن ثمرات الإيمان بأن القرآن كلام الله تعالى وليس بمخلوق : تعظيمه وتكريمه وتعظيم أوامره ونواهيه والإمتثال لها وعدم تسوية أوامره بأوامر المخلوقين فضلا عن تقديم أوامرهم على أوامره، وتصديق أخباره والسعي إلى تحكيم أحكامه في العباد والبلاد، والجهاد لأجل ذلك والاستشهاد في سبيله لأنه كلام ربنا وحكمه وشرعه الذي فيه سعادة الخلق في الدنيا والآخرة .

وهذا شيء من آثار هذا الإيمان وإلا فهي كثيرة وليس الإيمان بذلك معلومات فكرية معرفية مجردة عن الواقع كما يحفظها ويتلقاها أهل البدع ؛ ثم تراهم يعظمون ويقدمون كلام شيوخهم وأئمتهم على كلام الله وأمره، وكذلك كهان الطواغيت تراهم يقدمون أوامر الطواغيت وقوانينهم وتشريعاتهم الباطلة على أمر الله مع أن منهم من يدرس ويعلم مثل هذا الكلام تعليما نظريا بمعزل عن ثمراته .

***

٦- وأقـــول قـــال الله جـــل جلالـــه　　　والمصـــــــطفى الهـــــادي ولا أتـــــــــــــــــأول

يقرر شيخ الإسلام في هذا البيت منهجه السلفي الذي يتميز عن منهج أهل البدع ونحوهم ممن يقدمون تأويلاتهم وكلام شيوخهم وغيرهم على كلام الله وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم فالدين عنده قال الله قال رسوله ولذلك فإنه لا يتعصب لمذهب بل يدور مع الدليل حيث دار ..

قال الله تعالى: (فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ) [النساء:٥٩]. ومعنى الرد إلى الله سبحانه الرد إلى كتابه، ومعنى الرد إلى رسوله صلى الله عليه وسلم الرد إلى سنته بعد وفاته .

– قال عبد الله بن مسعود "اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم"

وقال ابن مسعود أيضا : (وستجدون أقواماً يزعمون أنهم يدعون إلى كتاب الله وقد نبذوه وراء ظهورهم عليكم بالعلم وإياكم والبدع والتنطع والتعمق وعليكم بالعتيق) اهـ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : (فمن اعتصم بالكتاب والسنة كان من أولياء الله المتقين، وحزبه المفلحين، وجنده الغالبين).

وقال أيضا عن السلف : « وكان من أعظم ما أنعم اللّه به عليهم، اعتصامهم بالكتاب والسنة، فكان من الأصول المتفق عليها بين الصحابة والتابعين لهم بإحسان أنه لا يقبل من أحد قط أن يعارض القرآن لا برأيه ولا ذوقه ولا قياسه ولا وجده، فإنه ثبت عنهم بالبراهين القطعيات، والآيات البينات، أن الرسول جاء بالهدى ودين الحق، وأن القرآن يهدي للتي هي أقوم » اهـ. مجموع الفتاوى ١٣/٢٨

ولذلك قالوا :

العلـــــم قـــــال الله قـــــال رســـــولُه ... قـــال الصـــحابةُ لـــيس بالتمويـــه
مـــا العلـــم نصـــبك للخـــلاف ســـفاهة ... بـــين الرســـول وبـــين رأى فقيـــه
كـــلا ولا جحْـــد الصـــفات ونفيهـــا ... حـــذرا مـــن التمثيـــل والتشـــبيه

قاله غير واحد العلماء وينسب لابن القيم وله في النونية في وصف منهج المنحرفين عن طريقة الاتباع وهدي السلف :

جعلـــوا كـــلام شـــيوخهم نصـــا ... لـــه الاحكـــام موزونـــا بـــه النصـــان
وكـــلام رب العـــالمين وعبـــده ... متشـــابها مـــتحملا لمعـــان

الى قوله :

عرضوا النصوص على كلام شيوخهم	فكأنما جيش لذي سلطان
والعزل والابقاء مرجعه الى	السلطان دون رعية السلطان
وكذاك أقوال الشيوخ فإنها	الميزان دون النص والقرآن
إن وافقا قول الشيوخ فمرحبا	أو خالفت فالدفع بالإحسان
إما بتأويل فإن أعيي	فتفويض ونتركها لقول فلان

والتأويل في استعمال الناس يرد على ثلاثة وجوه :

- الوجه الأول : تأويل بمعنى التفسير : كما في قوله تعالى (وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ) فالمراد به تفسير وتعبير الرؤى . ومنه دعاء النبي صلى الله عليه وسلم لابن عباس (اللهم علمه التأويل) وهو الذي يستعمله كثير من المفسرين في قولهم باب تأويل قوله تعالى ....

- الثاني : التأويل بمعنى العاقبة، أي عاقبة الشيء فإذا ورد في طلب، فتأويله فعله، وإذا كان نهيا فتأويله تركه وإن ورد في خبر فتأويله وقوعه .

مثال الخبر قوله تعالى (هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ) وقوله تعالى (هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ ...) ومثاله في الطلب قول عائشة رضي الله عنها فيما رواه البخاري ومسلم في قوله تعالى (إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ... الآية) كان يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده " سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي ؛ يتأول القرآن، أي يعمل به

- الثالث : التأويل بمعنى صرف اللفظ عن ظاهره ؛ فهذا ينقسم إلى قسمين :

- قسم محمود : وهو ما دل الدليل عليه وهذا يعتبر من القسم الأول (التفسير) مثاله قوله تعالى (أَتَى أَمْرُ اللَّهِ) فنقول : أتى : أي سيأتي لا محالة، واستخدم الفعل الماضي ليدل على حتمية وقوعه، وليس المراد به أنه أتى فعلا بدليل قوله تعالى بعد ذلك : (فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ) فهذا الدليل أو القرينة أجاز لنا أن نصرف اللفظ عن ظاهره من الماضي إلى المستقبل ونفهمه بهذا الفهم وهو تفسير له .

- وقسم مذموم : وهو ما لم يدل عليه دليل، بل يصرف اللفظ عن ظاهره بغير دليل فيكون من باب التحريف، وهذا النوع الأخير هو الذي نفاه وعناه شيخ الإسلام في نظمه . لأن حقيقته أنه تحريف، فالتحريف يكون لفظيا ومعنويا :

أما الفظي فكفعل اليهود في كتاب الله، قيل لهم قولوا حطة فقالوا حنطة، وهو قليل في هذه الأمة ويوجد في أهل التجهم قديما وحديثا ومن جنسه في زماننا حرفهم جميع نصوص الكفر التي تنص على كفر المشرعين والطواغيت عما نزلت عليه من ارادتها الكفر الأكبر في مناطاتها الحقيقية إلى الكفر الأصغر .

وشابه الجهمية كثير ممن يدعي التأويل وهو في الحقيقة محرف مثلهم، كمن قيل لهم : (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) فقالوا : استولى، وفي ذلك يقول ابن القيم رحمه الله في نونيته :

نـــون اليهـــود ولام جهمـــي همـــا   في وحـــي رب العـــرش زائـــدتان

فاليهود زادوا نونا على حطة، وهؤلاء زاد زادوا لاما على استوى .

والغالب في التحريف ما كان تحريفا معنويا ويسميه أنصاره تأويلا ليسوقوه ويصيروه مقبولا عند الناس يخلطوه بمصطلح التأويل الذي تبين لك أنه مقبول غير مذموم في بعض أقسامه وهو صرف الفظ عن ظاهره بدليل، أما تأويل أهل البدع فهو صرف الألفاظ عن ظواهرها وحرفها عن المراد بها بغير دليل ..

***

٧- وجميـــع آيـــات الصـــفات أُمِرّهـــا   حقـــاً كمـــا نقـــل الطـــراز الأول

طريقة أهل السنة والجماعة مع آيات وأحاديث الصفات الإيمان بها ويمروها كما جاءت ونقلها لنا الصحابة الذين هم خير القرون وهم المقصودون بقول الشيخ هنا (الطراز الأول)

ومعنى (أمرها) أي أؤمن بها كما جاءت دون تخوّض أو تأويل فاسد أو تحريف أو توسع لأن السلف لم يكونوا يحبون التوسع والتعمق في هذا الباب وذلك لأن عقول الخلق قاصرة عن إدراك كيفيات صفات الرب، وعاجزة عن الإحاطة بعلمه فالله لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار ولا يحيطون بعلمه إلا بما شاء سبحانه .

ولولا أن أهل البدع شغبوا على أهل السنة لإثباتهم للصفات وألزموهم بلوازم لا تلزمهم وإنما تلزم المشبهة ونحوهم ؛ لأن أهل السنة لا يشبهون الله أو صفاته بأحد من خلقه ؛ فلولا شغب المبتدعة على أهل السنة لما اضطر أهل السنة إلى التوسع في بعض مسائل الصفات

والزيادة في الكلام فيها على نحو لم يذكره السلف وذلك لضرورة الرد على إلزامات المبتدعة وتنقية منهج أهل السنة وتبرئته من تلك الإلزامات الفاسدة .

وإلا فالأصل في هذا الباب عدم التوسع فيه بل إمراره على طريقة السلف الصالح .

***

٨- وأردُّ عهدتَها إلى نُقَّالِها وأصونُها عن كلِّ ما يُتخَيَّلُ

وهذا فيه تعريض بمن يشغبون على أهل السنة لإثباتهم الصفات بأنه لو كان في هذا الإثبات - على سبيل الفرض والتنزل مع المخالف - لو كان فيه خطأ فإننا نرد تبعات ذلك وعهدته على نقاله إلينا ... وهذا يفيد بأنه إذا أثبت العالم الصفة من حديث ترجح له أن إسناده صحيح فتبعة ذلك على من نقلة إليه من أهل الإسناد ... فأما إذا ظهر له ضعف الحديث فيجب عليه ترك الاستدلال به لأنه يتحمل مسؤولية ذلك بعد هذا الظهور .

قوله (وأصونُها عن كل ما يتخيل)

وهذا فيه أن إثبات الصفات لا يعني بحال التشبيه أو التجسيم الذي يرمي به أعداء أهل السنة أهل السنة .

لأننا نصون هذه الصفات التي أثبتناها عن كل ما يتخيل ؛ لأننا لا نستطيع أن نحيط علماً بكيفية صفات الله ولن نتخيل إلا أشياء من عالم الشهادة الذي نعرفه والله يقول (ليس كمثله شيء) فكل ما قد يتخيل من صفات الله تعالى فقطعاً ليس كمثله تعالى فنصونه عن ذلك .

قال شيخ الإسلام في العقيدة الواسطية : (ومن الإيمان بالله : الإيمان بما وصف به نفسه في كتابه العزيز وبما وصفه به رسوله محمد صلى الله عليه وسلم من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكيف ولا تمثيل) ؛ بل يؤمنون بأن الله (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) فلا ينفون عنه ما وصف به نفسه . ولا يحرفون الكلم عن مواضعه ولا يلحدون في أسماء الله وآياته، ولا يكيفون ولا يمثلون صفاته بصفات خلقه .

لأنه سبحانه لا سمي له ولا كفء له ولا ند له . ولا يقاس بخلقه سبحانه وتعالى ...) أهـ

فتأمل قوله هنا : (ولا يقاس بخلقه) فهي مثل قوله (وأصونها عن كل ما يتخيل)

هذا لأن العقل لا مدخل له في باب الأسماء والصفات لأن مدارها على السمع أي النقل لا العقل، فعقولنا لا تحكم على الله أبداً خلافا للأشعرية والمعتزلة والجهمية وغيرهم من أهل التعطيل الذين جعلوا مدار الأسماء والصفات على العقل فهم ينفون ما نفته عقولهم ويثبتون ما أثبتته ويقدمون العقل على النقل ويحكمونه فيه، فصاروا يحكمون عقولهم فيما يجب أو يمتنع على الله سبحانه .

وقد قال بعض السلف وأظنه شيخ الإسلام ابن تيمية ....

(الشرع حاكم أو قاضي والعقل شاهد فإن شهد الشاهد بالحق وإلا طرده القاضي أو الحاكم)

والعقل إنما يدرك ما يجب لله سبحانه ويمتنع عليه على سبيل الإجمال لا على سبيل التفصيل، فمثلاً : العقل يدرك أن الرب لا بد أن يكون كامل الصفات سالما من النقص لكن العقل عاجز عن أن يحدد صفات الله بالتفصيل ويثبت كل صفة بعينها أو ينفيها من دون نقل ... بل هو عاجز عن ذلك ولا يمكنه أن يتخيل إلا أشياء من واقع الشهادة الذي يراه أو نظائرها وأشباهها والله لا نظير له ولا شبيه، أما عالم الغيب فلا مجال له بمعرفته إلا من طريق النقل .

وإذا كان الإنسان إذا جهل بعض المحسوسات والكائنات في الدنيا لم يقدر على تخيل حقيقتها وكنهها فكيف بعالم الغيب، وفي ذلك يحكى ابن خلدون في مقدمته عن وزير ألقى به في السجن وبرفقته ابن له صغير فنشأ ذلك الصغير في ظلمات السجن ولم ير من الحيوانات إلا الجرذان فكان أبوه يحاول أن يقص عليه بعض الحكايات ويصف له بعض الحيوانات ومع كل شرح كان الغلام يسأل ويكرر : أتراه كالجرذ يا أبت؟ إذ أنه لم ير من الحيوانات سوى جرذان الحبس ولذا فجميع الحيوانات عنده محدودة في شكل الجرذ ولا يتخيل أويتصور غير هذا المثال ..

وقد ضرب بعض المعاصرين مثال اللعب أوالعرائس التي تتحرك بالخيوط فلا يمكن لها – لو كانت تتخيل – إلا أن تتخيل أن كل من في العا لم يتحرك بالخيوط ولا يمكن أن تتصور أو تستوعب أن هناك من لا يتحرك بالخيوط حتى لو كان الحاوي الذي يحركها .

ومن ثم فلا غنى عن النقل في معرفة الغيبيات، ولا دور للقياس في باب الأسماء والصفات إلا أن يكون قياس الأولى على باب أن لله المثل الأعلى .

وفي هذين البيتين إشارة إلى قاعدة أهل السنة والجماعة التي نقلناها آنفا عن شيخ الإسلام في باب الأسماء والصفات .

وهي تتضمن النفي وهو (صيانتها عن كل ما يتخيل .)

والإثبات وهو قوله (وجميع آيات الصفات أمرها)

ولذلك قال في الواسطية : (وهو سبحانه قد جمع فيما وصف وسمى به نفسه بين النفي والإثبات) أهـ .

وهذا النفي والإثبات مأخوذ من الآية التي استدل بها شيخ الإسلام وهي قوله تعالى : (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير).

فهي قاعدة أهل السنة في إثبات الصفات ونفي المثيل لها فتجري جميع الصفات على نسقها ..

فالله هو السميع البصير ولا يشبه سمعه وبصره سمع وبصر المخلوقين الذين قال سبحانه في بعضهم : {إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا} ﴿٢﴾ سورة الإنسان

بل له سبحانه كمال صفتي السمع والبصر وسائر الصفات بما يليق بجلاله وليس كمثله شيء .

وقول شيخ الإسلام الذي نقلناه من الواسطية وهو (الإيمان بما وصف به نفسه في كتابه العزيز وبما وصفه به رسوله محمد صلى الله عليه وسلم من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير

تكييف ولا تمثيل) أهـ. ذكر فيه شيخ الإسلام الصفات فقط ولم يذكر الأسماء وهذا مشابه للنظم هنا فإنه ذكر (آيات الصفات) ولم يذكر الأسماء أيضا فلو زاد الطالب على

هذه المقالة (الأسماء) فقال (الإيمان بما سمى الله ووصف به نفسه في كتابه ... الخ) دون أن ينسب المقالة للشيخ لكان ذلك حسنا ...

ولعل السبب الذي حدى بالشيخ بالاكتفاء بذكر الصفات كونها هي أساس الخلاف مع الفرق الضالة والخلاف في الأسماء قليل ولأنه ما من اسم إلا ويتضمن صفه، ومعنى كونها أسماء حسنى أنها كلها تتضمن صفات كمال لله تعالى وليس في أسماء الله الحسنى اسماً جامداً لا صفة حسنة فيه ...

لذلك كان الدهر الذي لا يحمل سوى معنى الزمان ليس اسماً من أسماء الله كما يظنه بعض من أخطأ في فهم حديث (لا تسبوا الدهر فأنا الدهر ...)

والخلاف في الأسماء ضعيف لم ينكر الأسماء إلا غلاة الجهمية، فالمعتزلة يثبتون الأسماء وكذلك الأشاعرة والماتريدية لكنهم يخالفون أهل السنة في أكثر الصفات ولذلك والله أعلم كان تركيز الشيخ في منظومته وفي الواسطية أيضا على الصفات ....

على كل حال بالنسبة للأسماء :

يقول الله تعالى : {وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} ﴿١٨٠﴾ سورة الأعراف

فالإلحاد في أسماء الله هو الميل فيها عما يجب .

- والإلحاد في أسماء الله خمسة أنواع :

١ – أن يسمى الله بما لم يُسمّ به نفسه، كما سماه النصارى أباً وجعلوا عيسى الإبن، وسماه الفلاسفة علّة فاعلة .

وكما يسميه الماسونيون في زماننا مهندس الكون الأعظم، ويسميه من لا يرجون لله وقارا من الأدباء المعاصرين رسام الكون وريشة الكون ؛ فكل ذلك قلة أدب وإلحاد في أسماء الله .

فأسماء الله توقيفية ومعنى توقيفية أن لا نثبت إلا ما ثبت منها بالنص .

٢ – أن يرد أو ينكر شيئا من أسمائه الثابتة في الكتاب والسنة وهو عكس النوع الأول وهذا فعله غلاة الجهمية فقالوا : ليس لله اسم أبدا وزعموا أن تسمية الله بأسمائه يشبهه بالموجودات وهذا باطل مردود عليهم .

٣ – أن يثبت الأسماء وينكر ما دلت عليه من الصفات مثل أن يقول إن الله سميع بلا سمع، وعليم بلا علم، وخالق بلا خلق .. وهكذا يثبت الاسم وينكر ما تضمنه من صفة وهذا من اختراع المعتزلة ومن مذهبهم الفاسد، وهم يجعلون الأسماء أعلاماً محضة متغايرة، فيقولون : السميع غير العليم لكن كلها ليس لها معنى عندهم، السميع لا يدل على السمع والعليم لا يدل على العلم بل هي مجرد أعلام .

ومنهم من يقول جميع الأسماء عبارة عن شيء وأحد فالعليم سميع وبصير كلها شيء وأحد لا تختلف إلا بتركيب الحروف فيجعل الأسماء شيئاً واحدا.

* والصحيح أن للاسم له ثلاث دلالات :

أ– دلالة المطابقة : وهي دلالة اللفظ على جميع مدلوله، (الذات والصفة) فكل اسم دال على المسمى به وهو الله، وعلى الصفة المشتق منها هذا الاسم . فمثلا إذا قلت الخالق : فهو اسم يدل على ذات الله، ويدل على أن له صفة الخلق .

ب – دلالة التضمن : وهي دلالة اللفظ على بعض مدلوله : كدلالة الاسم على الذات وحدها أو على الصفة وحدها . كدلالة اسم الخالق على الذات وحدها، أو على صفة الخلق وحده لأنه دل على بعض معناه .

ج – دلالة الالتزام : وهو شيء يفهم لا من لفظ الاسم لكن من لازمه كدلالة الخالق على صفة العلم والقدرة فهذا يسمى دلالة التزام ؛ إذ لا يكون الخلق إلا بعلم وقدرة وحكمة .

ولذلك فإثبات الأسماء الحسنى لله تعالى يستلزم إثباتها وإثبات هذه الدلالات معها وإذا أنكر الإنسان شيئاً من هذه الدلالات صار ملحداً في الأسماء، وأهل السنة يثبتون كل اسم من الأسماء الحسنى ثبت في الكتاب والسنة ويؤمنون به وبما تضمن من الصفات .

● وأسماء الله الحسنى ليست محصورة في ٩٩ اسما بل من أحصى هذه ال ٩٩ دخل الجنة وليس الحديث الوارد في ذلك مقصود به حصر الأسماء الحسنى ب ٩٩ فقد جاء في الحديث (أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو استأثرت به في علم الغيب عندك)

فقوله (أو استأثرت به في علم الغيب عندك) دال على أن لله أسماء زيادة على ما أنزله في كتابه وفي سنة نبيه صلى الله علية وسلم ..

وكثرة الأسماء تدل على شرف المسمى وعظمته وكماله وجلال صفاته .

٤ – ومن أنواع الإلحاد في الأسماء : أن يثبتها ويجعلها دالة على التمثيل ؛ أي دالة على بصر كبصر الخلق وعلم كعلمهم وسمع كسمعهم وهذا إلحاد لأنه ميل عن الواجب فيها وهو إثباتها بلا تمثيل والتمثيل تنقيص للصفة عن كمالها وجلالها الذي يليق بالرب سبحانه وتعالى .

٥ – أن يسمى بأسماء الله الحسنى بعض الخلق أو يشتق لهم أسماء من أسماء الله .. كمن يسمون عيسى ابن مريم بالإله أو كمن يشتقون من أسماء الله أسماء لآلهتهم كما قيل اللات : من الله وقيل أنه كان يلت السويق للحجيج فعظموه وكرموه حتى ألهوه. والعزى : من العزيز . ومناة : من المنان . فهذا إلحاد في أسماء الله .

فأهل السنة لا يلحدون في أسماء الله تعالى بل يثبتونها على مراد الله ويثبتون ما دلت عليه من الصفات بجميع أنواع الدلالات الصحيحة .

أما صفات الله تعالى التي يجب أن نثبتها فتقسم إلى :

١ – صفات ذاتية : وهي الملازمة للذات لا تنفك عنه أي التي لم يزل ولا يزال متصفاً بها وهي نوعان :

(أ) ذاتية معنوية : مثل الحياة والعلم والقدرة والحكمة .... و أشباهها فالله لم يزل حيا ولا يزال حيا ولم يزل عالما ولايزال عالما، فليس حياته تتجدد بل هو موصوف بهذا أزلاً وأبدا، وتجدد المسموع مثلا لا يلزم تجدد صفة السمع .

(ب) ذاتية خبرية : وهو ما كان من قبيل الأبعاض والأجزاء بالنسبة لنا مثل اليدين، والوجه، والعينيين ... ونحوه، فالله لم يزل له يدان وعينان ووجه لم يحدث له شيء من ذلك بعد أن لم يكن، ولن ينفك عن شيء منه .

٢ – صفات أفعال : لأنها من فعله سبحانه وهي الصفات المتعلقة بمشيئته مثل المجيء والنزول والرضى وهي نوعان :

(أ) صفات لها سبب معلوم : مثل الرضا : فالله عز وجل إذ أوجد سبب الرضى رضي كما قال تعالى : (إن تكفروا فإن الله غني عنكم ولا يرضى لعباده الكفر وإن تشكروا يرضه لكم) الزمر ٧

(ب) صفات ليس لها سبب محدد معلوم عندنا نحن، مثل : النزول إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير لإجابة الدعاء والاستغفار .

ومن الصفات ما هو صفة ذاتية وفعلية في الوقت نفسه مثل صفة الكلام : فهو صفة ذاتية باعتبار أصله لأن الله لم يزل ولا يزال متكلما، فالكلام صفة كمال لذلك ذم الله تعالى العجل لبني إسرائيل بقوله : {أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا} ﴿٨٩﴾ سورة طه .

وهو صفة فعلية باعتبار آحاده فالله تعالى يتكلم بما شاء متى شاء ؛ قال تعالى (وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ) أي متجدد، جديد، وليس في إثبات صفات الأفعال نقص من وجه من الوجوه بل ذلك من كماله أن يكون سبحانه (فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ) وأفعاله ليست كأفعال المخلوقين ولا تماثلهم، ومن أنكرها إنما أنكرها لأنه لا يفهم منها إلا التمثيل والتشبيه فيقولون : إن إثباتها نقص، ولذلك يقولون مثلا ؛ المحبة ميل إلى المحبوب وهذا نقص لا يليق بصفات الله، فيردون هذه الصفة أو يؤولونها أي يحرفونها، وهذا إنما أوقعهم به التمثيل ولو أنهم أثبتوا ما أثبته الله لنفسه من غير تمثيل لسلموا وفلحوا، وينكرون جميع الصفات الفعلية فيقولون لا يجييء ولا يرضى ولا يسخط ولا يكره ولا يحب بدعوى أن هذه حادثة والحادث لا يقوم إلا بحادث، وهذا باطل لأنه فيه تقديم للعقل القاصر على النقل(الكتاب والسنة) ولأنه باطل بنفسه إذ لا يلزم حدوث الفعل حدوث الفاعل .

***

٩- قبحـــاً لمـــن نبـــذ القـــران وراءه   وإذا اســـتدلَّ يقـــول : قـــال الأخطـــلُ

هذا البيت من الأبيات التي وردت في فتاوى شيخ الإسلام مستشهداً به بقوله : (وقد أنشد فيهم المنشد ...) مجموع الفتاوى (٦ / ٢٩٧)

وهو الذي جعل البعض يرى أن هذه المنظومة لغيره ؛ وليس في ذلك حجة لهم فكم من صاحب شعر يستشهد به على هذا الوجه، خصوصا وقد ذكر المنشد وليس الناظم، ولوعزى البيت لغيره لكان اعتراضهم على نسبتها له وجيها .

ينعي شيخ الإسلام في هذا البيت على من ترك الاستدلال بأدلة الكتاب والسنة في أبواب أصول الدين والإيمان وصفات الله تعالى وذهب يستدل بدلاً عنها بشعر أو قول يجعله دليلاً يحتكم إليه ...

والأخطل كما قال شيخ الإسلام من الشعراء (المولدين [1] وليس من الشعراء القدماء، وهو نصراني كافر مثلث واسمه الأخطل والخطل فساد في الكلام وهو نصراني، والنصارى قد أخطأوا في مسمى الكلام فجعلوا المسيح القائم بنفسه هو نفس كلمة الله) أهـ . فكيف يحتج به في تعريف كلام الله أو صفاته !؟

وقد ذكر شيخ الإسلام في كتاب الإيمان في سياق كلامه على مسمى الإيمان ورده على من فصل العمل عن الإيمان وجعله مجرد تصديق القلب وبيانه أن مجرد ما في النفس أو القلب لا يتناوله لفظ الكلام والقول المطلق وأن من لم يصدق بلسانه مع القدرة لا يسمى مؤمنا كما اتفق على ذلك سلف الأمة من الصحابة والتابعين لهم بإحسان...إلى أن قال : (وأما البيت الذي يحكى عن الأخطل أنه قال :

إن الكـــلام لفـــي الفـــؤاد وإنمـــا   جعـل اللسـان علـى الفـؤاد دلـيلا

فمن الناس من أنكر أن يكون هذا من شعره، وقالوا إنهم فتشوا دواوينه فلم يجدوه، وهذا يروى عن محمد بن الخشاب، وقال بعضهم: لفظه (إن البيان لفي الفؤاد) ولو احتج محتج في مسألة بحديث أخرجاه في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم لقالوا هذا خبر واحد، ويكون مما اتفق العلماء على تصديقه وتلقيه بالقبول، وهذا البيت لم يثبت نقله عن قائله بإسناد لا واحد ولا أكثر من واحد، ولا تلقاه أهل العربية بالقبول فكيف يثبت به أدنى شئ من اللغة فضلاً عن مسمى الكلام، ثم يقال مسمى الكلام والقول ونحوهما ليس هو مما يحتاج فيه إلى قول شاعر ؛ فإن هذا مما تكلم به الأولون والآخرون من أهل اللغة وعرفوا معناه في لغتهم كما عرفوا مسمى الرأس واليد والرجل، وأيضا فالناطقون باللغة يحتج باستعمالهم للألفاظ في معانيها لا [2] ما يذكرونه من الحدود..... إلى قوله : فعلم أن الأخطل لم يرد بهذا أن يذكر مسمى الكلام ولا أحد من الشعراء يقصد ذلك البتة وإنما أراد إن كان قال ذلك ؛ ما فسره به المفسرون للشعر، أي أصل الكلام من الفؤاد وهو المعنى، فإذا قال الإنسان بلسانه ما ليس في قلبه فلا يثق به، وهذا كالأقوال التي ذكرها الله عن المنافقين ذكر أنهم يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، ولهذا قال :

---

١ المولدين هم الشعراء الذين ظهروا بعد اختلاط العرب بالأعاجم بسبب الفتوحات وفساد اللغة وتغيرها بسبب ذلك ولذلك لم يحتج بشعرهم كثير من اللغويين .

٢ في الأصل المطبوع في مؤسسة المختار ٢٠٠٣م. ١٤٢٤هـ : (لأن) والصواب : لا .

لا يعجبنـــك مـــن أثـــير خطبـــه حـــتى يكـــون مـــع الكـــلام أصـــيلا

إن الكلام لفي الفؤاد وإنما ....الخ

نهاه أن يعجب بقول الظاهر حتى يعلم ما في قلبه من الأصل، ولهذا قال : حتى يكون مع الكلام أصيلا، وقوله (مع الكلام) دليل على أن اللفظ الظاهر قد سماه كلاما وإن لم يعلم قيام معناه بقلب صاحبه، وهذا حجة عليهم فقد اشتمل شعره على هذا وهذا بل قوله (مع الكلام) مطلق وقوله (إن الكلام لفي الفؤاد) أراد به أصله ومعناه المقصود به، واللسان دليل على ذلك) أهـ ثم ذكر كلامه في الأخطل الذي استفتحنا به .

ويستدل أيضا أهل التعطيل للصفات ببيت آخر لهذا الشاعر ليحرفوا الاستواء لله تعالى إلى الإستيلاء وهو قوله :

قـــد اســـتوى بشـــر علـــى العـــراق مـــن غـــير ســـيف أو دم مهـــراق

(بشر) : هو ابن مروان، استوى : أي استولى على العراق .

وهذا لا حجة لهم فيه على جعل الاستواء استيلاءً لأن تفسير (استوى بشر على العراق) باستولى، تفسير تعضده القرينة لأن من المتعذر أن بشراً يصعد فوق العراق فيستوي عليه كما يستوي الملك على كرسيه فلهذا يصح تأويله باستولى، وهناك رد آخر وهو أن يكون الاستواء هنا معنوي، بمعنى السيطرة والغلبة والقهر فيبقى معنى صفة الاستواء على أصلها وعمومها ليشمل العلو الحقيقي والمعنوي ولا يحرف كلام الله لقول شاعر أو غيره.

والأدلة على استواء الله على عرشه وعلوه على خلقه العلو الحقيقي والمعنوي كثيرة من الكتاب والسنة فمن القرآن قوله تعالى : (إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ).

ومن ذلك قوله تعالى : (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى)

قال الإمام مالك : (الكيف غير معقول، والاستواء غير مجهول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة)

وقال تعالى : {أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ} ﴿١٦﴾ سورة الملك.

ومن السنة قوله صلى الله عليه وسلم : (ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء)

وقوله صلى الله عليه وسلم للجارية: (أين الله؟) قالت : في السماء، قال: (من أنا؟) قالت : أنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: (اعتقها فإنها مؤمنة) رواه مسلم

وأهل التعطيل ينكرون هذا بدعوى أن هذا يستلزم أن الله في جهة ومن وصف الله بذلك كفر عندهم..واستفهام النبي صلى الله عليه وسلم بـ (أين) يدل على أنه لا حرج من السؤال عن هذا والإجابة بمثل إجابة الجارية، ولكن يجب أن نعلم أن الله تعالى لا تحيط به الأمكنة، لأنه أكبر من كل شيء وكونه في السماء أي في العلو وفوق كل شيء .

***

١٠- والمؤمنون يرون حقاً ربهم وإلى السماء بغير كيفٍ ينزلُ

قال شيخ الإسلام في العقيدة الواسطية : (وقد دخل أيضا فيما ذكرناه من الإيمان به وملائكته وكتبه ورسله : الإيمان بأن المؤمنين يرونه يوم القيامة عياناً بأبصارهم كما يرون الشمس صحوا ليس بها سحاب وكما يرون القمر ليلة البدر لا يضامون في رؤيته يرونه سبحانه وهم في عرصات يوم القيامة، ثم يرونه بعد دخول الجنة كما يشاء سبحانه وتعالى) أهـ

وجه كون الإيمان برؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة من الإيمان به وبكتبه وبملائكته وبرسله لأن هذا مما أخبر الله به وجاء في كتبه ونقل بواسطة ملائكته وبلغه لنا رسله .

(عيانا) بمعنى: معاينة أي رؤية عين .

وقوله (كما يرون الشمس صحوا...) (وكما يرون القمر ليلة البدر)

هذا تشبيه الرؤية ووضوحها برؤية الشمس صحوا ليس دونها سحاب وبرؤية القمر ليلة البدر، فهو تشبيه الرؤية بالرؤية ووضوحها وليس تشبيه المرئي بالمرئي..فلا يتعارض هذا مع قاعدة أهل السنة والجماعة في تنزيه الله تعالى عن المثيل، بل الفائدة منه تأكيد أن رؤيتنا لله تكون رؤية بصرية لأن رؤيتنا للقمر بصرية .

و(لا تضامون) بضم التاء وتخفيف الميم أي لا يلحقها ضيم وهو الظلم أي لا يحجب بعضكم بعضا فيظلم و(عرصات) : جمع عرصه وهي المكان الواسع الخالي من البناء لأن الأرض تمد مد الأديم وتكون كالخبزة .

فالمؤمنون يرون ربهم يوم القيامة في عرصاتها قبل أن يدخلوا الجنة، وفُهِمَ من ذكره للمؤمنين في كلامه ونظمه أن الكافرين يحرمون هذه النعمة كما قال تعالى : (لا إنهم عن ربهم يومئذٍ لمحجوبون) المطففين

(ثم يرونه بعد دخول الجنة كما يشاء سبحانه)

وقد ورد في إثبات الرؤية أربع آيات ذكرها شيخ الإسلام في الواسطية وهي قوله تعالى : (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ).

وقوله : {عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ} ﴿٢٣﴾ سورة المطففين.

وقوله تعالى : (لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ)

وقوله : {لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ} ﴿٣٥﴾ سورة ق

ويدل على ذلك أيضا قوله تعالى : {كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ} ﴿١٥﴾ سورة المطففين، فهو يدل على أن المؤمنين غير محجوبين لأنه لو كان الجميع محجوبين لما كان مزية لذكر هؤلاء في الحجب، والأحاديث في هذا متواترة :

مما تواتر حديث (من كذب) ... ومن بنى الله بيتاً واحتسب

ورؤية شفاعة والحوض ... ومسح خفين وهذي بعض

فالرؤية قطعية الثبوت وأدلتها قطعية الدلالة ولذلك ذهب بعض أهل العلم إلى كفر من أنكرها كون الرسول عبَر عن رؤيتنا لله تعالى كما نرى الشمس والقمر لا نضام أو نضار بذلك فدل على أنها رؤية حقيقية حسية بصرية وليست هي رؤية العلم كما فسرها المعطلة .

والنظر ليس هو الانتظار كما حاول بعضهم تفسيره بقوله تعالى (فناظرة بم يرجع المرسلون) فإنه في آية النظر إلى ربنا، عدَي النظر بـ (إلى) وهو نظر صادر من الوجوه (إلى) الدالة على الغاية والنظر الصادر من الوجوه يكون بالعين (إلى ربها) فأفادت الآية أن هذه الوجوه الناظرة تنظر إلى ربها فتزداد حسناً ونضارة بهذا النظر.

وكوننا نراه سبحانه بأبصارنا لا يلزم من ذلك الإدراك ؛ لأن الله تعالى قال: (لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ) ولأن الإدراك شئ أخص من الرؤية ولا يلزم من حصول الرؤية حصول الإدراك كما في قوله تعالى في قصة موسى {فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ} ﴿٦١﴾ سورة الشعراء، فحصلت الرؤية ولم يحصل الإدراك..وذلك كما أن العلم بالقلب لا يلزم منه الإدراك والإحاطة كما قال تعالى (وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا)، فنحن نعلم ربنا بقلوبنا ولكن لا ندرك كيفية صفاته، ويوم القيامة نرى ربنا بأبصارنا ولكن لا تدركه أبصارنا، فاستدلال منكري الرؤية بهذه الآية التي تنفي الادراك على إنكار الرؤية باطل لأنها لم تنف عموم الرؤية بل نفت الإدراك، والقاعدة (**أن نفي الأخص يدلَ على وجود الأعم**) وعلى هذا فالآية دليل ضدهم لا لهم، وبهذا تكون الآيات الدالة على رؤية الله تعالى مع الاستدلال بهذه الآية على هذا الوجه ستة آيات استدل بها أهل السنة والجماعة على رؤية الله يوم القيامة وفي الجنة وخالفهم فيها الجهمية والمعتزلة والأشاعرة وغيرهم .

ومما استدل به أيضا نفاة الرؤية لله قوله تعالى لموسى لما سأله بقوله (أرني أنظر إليك قال لن تراني) قالوا أن (لن) لنفي التأبيد والنفي خبر وخبر الله صدق لا يدخله النسخ لأن النسخ في الأحكام لا في الأخبار، ورد عليهم بأن دعواهم أن (لن) للنفي المؤبد مردود بقول علماء اللغة الثقاة ومنهم ابن مالك في الألفية :

ومــن رأى النفــي بلــن مؤبــدا فقولــه اردد وســواه فاعضــدا

وينصر هذا ويدل عليه أن الله تعالى أخبر عن المشركين في الدنيا بقوله : (ولن يتمنوه أبداً بما قدمت أيديهم) فأخبر بأنهم لن يتمنوا الموت واستعمل (لن)وأكده أيضا بقوله (أبدا) ثم أخبر عنهم في الآخرة أنهم يقولون : (يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ) فيتمنون الموت ؛ وهذا دال على أن (لن) لا تفيد التأبيد ولو أفادته بزيادة ذكر التأبيد كما في الأية فذلك في الدنيا فقط، وأما أحكام الآخرة فهي مغايرة لأحكام الدنيا .

وقوله تعالى (لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ) .

ف (الحسنى) : الجنة و (زيادة) هي: النظر إلى وجه الله تعالى كما فسرها المصطفى صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي رواه مسلم وغيرة .

وهي زيادة على نعيم أهل الجنة بل هي ألذ نعيمهم، والجزاء من جنس العمل فمن عبد الله في الدنيا بالإحسان فإنه سينال الحسنى أي سيراه في الآخرة ؛ وعبادته بالإحسان أن يعبده كأنه يراه وهي رتبة المشاهدة كما يسميها بعض العلماء .

وهذا يدلك على أن عقيدة أهل السنة والجماعة في هذه المسائل وغيرها ليست كما هي عند أهل الكلام مجرد مسائل معرفية تحفظ ويجادل فيها وحسب ؛ بل لها آثارها العملية من ناحية البناء النفسي والمسلكي :

فإن الحرص على نيل الحسنى يستلزم عبادة الله بأعلى المراتب وهي الإحسان .

ومن هذا الباب الحديث المتفق عليه والذي ساقه شيخ الإسلام في الواسطية :

(إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر لا تضامون في رؤيته فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس و صلاة قبل غروبها فافعلو)

فهذا دافع للحرص على هاتين الصلاتين المهمتين والمحافظة عليهما .. وفي الحديث المتفق عليه أيضا (من صلى البردين دخل الجنة) والبردان : هما صلاة الفجر والعصر .

(وإلى السماء بغير كيف ينزل)

وهذا من الصفات الفعلية لله تعالى وقوله (بغير كيف) أي بغير خوض منا بالكيف وإلا فلذلك (كيف) لا نعلمه ولا يجوز لنا أن نخوض فيه، وفي الحديث قال صلى الله عليه وسلم : (ينزل ربنا إلى السماء الدنيا كل ليلة حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول : من يدعوني فأستجيب له ؟ من يسألني فأعطيه ؟ من يستغفرني فأغفر له)

اتفق العلماء على أن هذا الحديث من الأحاديث المشهورة والمستفيضة عند أهل العلم بالحديث وبعضهم عده من الأحاديث المتواترة .

والنزول في هذا الحديث نزول حقيقي ولا نحتاج أن نقول (بذاته) بل نقول كما قال الحديث (ينزل ربنا) وقد قال بعض العلماء : ينزل بذاته رداً على أهل البدع الذين حرفوا الحديث حين قالوا : إنما ينزل أمره أو رحمته أو ملك من ملائكته .. وهذا باطل فإن نزول أمر الله تعالى يكون في كل وقت ولا يختص بالثلث الأخير من الليل وكذلك رحمته وهل يعقل أن يقول ملك من ملائكة الله : (من يدعوني فأستجيب له ..) وإنما فعلوا ذلك لأنهم لا يعقلون من الصفات إلا التشبيه فيصيرون إلى النفي والتحريف حذرا من التشبيه بزعمهم ولو أثبتوها على طريقة أهل السنة المربوطة بالتنزيه لما احتاجوا إلى تحريف ولا تعطيل .

وقد موهوا على أهل السنة بأسئلة جرها عليهم تشبيههم حين قالوا : إذا نزل فأين الاستواء على العرش وأين العلو وادعوا أن هذا يلزم منه أن يبقى نازلاً دائماً لأنه لا يخلو وقت من ثلث الليل الأخير ؛ الآن عندنا وبعد ذلك في مصر ثم في المغرب وهكذا .

وقد رد عليهم شيخ الإسلام ابن تيمية في ذلك كله في كتاب له باسم (شرح حديث النزول) وبين أنهم إنما قالوا هذا لأنهم يشبهون نزول الله بنزول خلقه ولذلك ينفونه وكل ناف للصفات ومعطل لها فحقيقته أنه مشبه ولذلك ينفيها .

أما أهل السنة والجماعة فلا تلزمهم تلك اللوازم كلها، ولا يلزمهم الإجابة على شيء من تمويهات المبتدعة لأنهم لا يشبهون نزول الله بنزول أحد من خلقه، وإنما يلزم بتلك اللوازم وبالإجابة على تلك الأسئلة من شبه نزول الله بنزول خلقه .

وقد اختار شيخ الإسلام في (الرسالة العرشية) أن الله لا يخلو من العرش لأن أدلة استوائه على العرش محكمة وهذا الحديث محكم والله تعالى لا تقاس صفاته بصفات خلقه فنؤمن بنصوص الاستواء كما نؤمن بنصوص النزول والله وحده اعلم بكيفية ذلك فعقولنا أقصر و أدنى من أن تحيط بالله عز وجل .

وبعض العلماء : قالوا نتوقف فلا نقول يخلو ولا : لا يخلو .

ومن ثمرات الاعتقاد بنزول الرب في هذه الساعة المباركة ؛ المبادرة إلى استغلال هذه الساعة الرحمانية التي ينزل فيها الرب إلى السماء الدنيا ويشوّق عباده بقوله (من يدعوني ... من يسألني ... من يستغفرني ...) فاحرص أن تكون منهم في ذلك الوقت تحديداً ولو تركت قيام باقي الليل فاحرص على آخره لأجل اقتناص هذه الساعة المباركة .

***

١١- وأقــرُّ بــالميزان والحــوض الــذي أرجــو بــأنيَّ مِنــهُ رَيّــاً أنهَــلُ

قوله : (وأقر بالميزان) أهل السنة والجماعة يؤمنون بالميزان يوم القيامة وبأنه ميزان حقيقي **لأن الأصل في الكلام الوارد في الكتاب والسنة حمله على المعهود المعروف إلا إذا قام دليل على خلاف ذلك** والمعهود أن الميزان عند المخاطبين ميزان حسي حقيقي .

وخالف في ذلك المعتزلة بدعوى أن الله قد علم أعمال العباد وأحصاها فلا حاجة لميزان حقيقي وإنما المراد بذلك الميزان المعنوي وهو العدل .

ولا شك أن قولهم باطل لأنه مخالف لظاهر اللفظ وإجماع السلف . وقد قال تعالى في القرآن: (وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ).

وقال سبحانه: {وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} ﴿٨﴾ سورة الأعراف

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : (كلمتان حبيبتان إلى الرحمن خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان : سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم) رواه البخاري ومسلم

ولا غرابة أن توزن الأعمال وهي ليست أجسام فالله على كل شيء قدير وهو قادر على جعلها أجسام إن شاء، فالموت يجعل على صورة كبش ويذبح بين الجنة والنار.

ويوزن في هذا الميزان أشياء عدة :

- الأول : ما ذكره الناظم في العقيدة الواسطية في قوله (فتنصب الموازين فتوزن بها أعمال العباد) أهـ .ويدل على ذلك قوله تعالى: (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ).

ومنه الحديث أعلاه .

- الثاني : توزن الصحائف ويدل على هذا حديث صاحب (البطاقة) وهو الرجل الذي يؤتى به على رؤوس الخلائق وتوضع سجلات أعماله تسعة وتسعين سجلا كل سجل مد البصر فيقال له : ألك عذر أو حسنه ؟ فيقول : لا يا رب!

فيقول الله عز وجل : بلى إن لك عندنا حسنه فيؤتى ببطاقة صغيرة فيها : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله، فيقول : يا رب ! ما هذه البطاقة مع هذه السجلات ؟! فيقال : إنك لا تظلم، قال فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة فطاشت السجلات وثقلت البطاقة . رواه الإمام احمد والترمذي وغيرهما

- الثالث : يوزن العامل نفسه، كما في قوله تعالى {أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا} ﴿١٠٥﴾ سورة الكهف

ومن ذلك حديث ابن مسعود حين كان يجتني سواكاً من أراك وجعلت الريح تحركه لدقة ساقية فضحك الصحابة رضي الله عنهم فقال النبي صلى الله عليه وسلم : ممّ تضحكون ؟

قالوا من دقة ساقية ؟ قال : والذي نفسي بيده، لهما في الميزان أثقل من أحد.) رواه الطبراني في الكبير .

ومن ثمرات هذا الإيمان أن نعمل لتثقيل موازين أنفسنا وأعمالنا وصحائفنا..

ومن ذلك أن نزن الأفراد والجماعات والهيئات والأعمال والمناهج والكتابات والتيارات وفق هذا الميزان الرباني فمن حقق التوحيد فهو أقرب الناس إلينا وإن قصّر في الفروع، ومن نقضه فهو أبعد الناس عنا وإن كان مصطبغاً بكثير من شرائع الإسلام وشعائره لأن التوحيد هو أولاً وآخراً .

وأن نتعرف إلى ما يثقل الميزان من أعمال فنحرص عليها .

عن أبي الدرداء قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (أثقل شيء في الميزان الخلق الحسن) رواه ابن حبان .

وفي رواية الإمام أحمد (ليس شيء أثقل في الميزان من الخلق الحسن)

وعن الترمذي (ما من شيء يوضع في الميزان أثقل من حسن الخلق وإن صاحب حسن الخلق ليبلغ به درجة صاحب الصوم والصلاة)

وفي الحديث الذي يرويه البزار قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (الميزان بيد الرحمن يرفع أقواماً ويضع آخرين) فنسأل الله تعالى أن يرفعنا برحمته .

(والحوض...) قال شيخ الإسلام في الواسطية : (وفي عرصات القيامة الحوض المورود للنبي صلى الله عليه وسلم ماؤه أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل آنيته عدد نجوم السماء طوله شهر وعرضه شهر، من يشرب منه شربة لا يظمأ بعدها أبداً) أهـ

تقدم أن العرصات: جمع عرصة وهي المكان المتسع بين البنيان والمراد به هنا مواقف القيامة .

وقد ثبت أن لكل نبي حوض ففي الحديث الذي يرويه الترمذي عن سمرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (إن لكل نبيّ حوضاً وإنهم يتباهون أيُّهم أكثر واردة وإني لأرجو أن أكون أكثرهم واردة)

والحوض يكون قبل العبور على الصراط حيث يكون الناس أحوج ما يكونون إليه من شدة الحر حين تدنو الشمس من رؤوس العباد ويتصبب عرقهم بحسب أعمالهم،

ويرد على الحوض المؤمنون المصلون لأنه ذكر صلى الله عليه وسلم أنه يعرف أمته حين ترد عليه من آثار الوضوء غرّاً محجلين.

وقد وردت الصفات التي ذكرها شيخ الإسلام في حوض النبي صلى الله عليه وسلم في أحاديث عديدة والأخبار عنه متواترة كما تقدم . فروى الإمام أحمد والترمذي وغيرهما عن ثوبان أن النبي صلى الله عليه وسلم يقول : (إن حوضي من عدن إلى عمّان البلقاء، ماؤه أشدّ بياضا من اللبن وأحلى من العسل، أكاويبه عدد النجوم، من شرب منه شربة لم يظما بعدها أبداً، أول الناس وروداً عليه فقراء المهاجرين، الشعثُ رؤوساً، الدنس ثياباً، الذين لا ينكحُون المتنعمات، ولا تفتح لهم السدد، الذين يعطون الحق الذي عليهم، ولا يُعطون الذي لهم) .

وفي الحديث المتفق عليه عن عقبة بن عامر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (إني بين أيديكم فرط لكم، وأنا شهيد عليكم وإن موعدكم الحوض، وإني والله لأنظر إلى حوضي الآن ..)

والفرط هو الذي يتقدم المسافرين ليهيئ لهم المنزل . والحديث استدل به بعض العلماء على وجود الحوض الآن أي أنه موجود قبل يوم القيامة .

وفي صحيح مسلم عن ثوبان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (إني لبعقر حوضي يوم القيامة أذود الناس لأهل اليمن وأضربهم بعصاي حتى يرفض عليهم، فسئل عن عرضه ؟ فقال : من مقامي إلى عمان شرابه أشدَّ بياضاً من اللبن وأحلى من العسل، يصب فيه ميزابان يمدَّانه من الجنة، أحدهما من ذهب والآخر من ورق)

وقوله (لبعقر حوضي) : أي مؤخرته وموضع الشاربة منه.

وقوله (يرفضّ) أي يسيل.

وفي صحيح البخاري عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (إن قدر حوضي كما بين أيلة إلى صنعاء من اليمن، وإن فيه من الأباريق كعدد نجوم السماء)

وهذا الحوض العظيم في ذلك الموقف العظيم الذي أحوج ما يكون الناس إليه إلى شربة ماء فكيف بشربة يكون فيها مثل هذه البشرى العظيمة (لا يظمأ بعدها أبداً) فإنها بشرى لما يأتي بعدها...

وسيذاد عن الحوض أقوام منهم :

١. المبدلون بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم المحدثون ومن باب أولى المشرعون لما لم يأذن به الله ..

روى البخاري عن سهل بن سعد الأنصاري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إني فرطكم على الحوض، من مر عليّ شرب ومن شرب لم يظمأ أبداً، ليردن عليّ أقوام أعرفهم ويعرفونني، ثم يحال بيني وبينهم)

قال أبو حازم : فسمعني النعمان ابن أبي عياش فقال : هكذا سمعت عن سهل ؟ فقلت : نعم، فقال : أشهد على أبي سعيد الخدري لسمعته وهو يزيد فأقول : إنهم مني (وفي رواية أسماء : أمتي) فيقال : إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، (وفي الرواية مشوا على القهقرى) فأقول : سحقاً سحقاً لمن غير بعدي) قال ابن أبي مُليكة في الرواية : (اللهم إنا نعوذ بك أن نرجع على أعقابنا أو نفتن)

وقد حمل العلماء هذا على الإحداث في الدين ما ليس منه والابتداع فيه فيدخل فيه التشريع لما لم يأذن به الله وسن القوانين الوضعية من باب أولى .

٢. أعوان أمراء السوء، ومن باب أولى أنصار الطواغيت، فقد روى الإمام أحمد وغيره عن جابر بن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (أعاذك الله ياكعب من أمارة السفهاء، قال : وما إمارة السفهاء يا رسول الله ؟ قال : أمراء يكونون بعدي لا يهتدون بهديي ولا يستنون بسنتي من صدقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم فأولئك ليسوا مني ولست منهم ولا يردون عليّ حوضي، ومن لم يصدقهم بكذبهم ولم يعنهم على ظلمهم فأولئك مني وأنا منهم ويردون عليّ حوضي)

فإذا كان من صدق هؤلاء الأمراء المنحرفين وأعانهم على ظلمهم يبرأ منه الرسول صلى الله عليه وسلم فدخول أنصار الطواغيت الذين يعينونهم على كفرهم وينصرونهم على تحكيم قوانينهم الوضعية الوضيعة في ذلك من باب أولى والبراءة منهم أولى وأوجب .

***

١٢- وكـــذا الصـــراطُ يُمَـــدُّ فـــوق جهــــــــــــــــــــــــنَمَ   فموحـدٌ نــاجٍ وآخــرُ يُهْمَــلُ

قال شيخ الإسلام في الواسطية : (والصراط منصوب على متن جهنم، وهو الجسر الذي بين الجنة والنار، يمر الناس عليه على قدر أعمالهم، فمنهم من يمر كلمح البصر، ومنهم من يمر كالبرق، ومنهم من يمر كالريح، ومنهم من يمر كالفرس الجواد، ومنهم من يمر كركاب الإبل، ومنهم من يعدو عدوا، ومنهم من يمشي مشيا ومنهم من يزحف زحفا، ومنهم من يخطف خطفاً ويلقى في جهنم، فإن الجسر عليه كلاليب تخطف الناس بأعمالهم فمن مرّ على الصراط دخل الجنة، فإذا عبروا عليه وقفوا على قنطرة بين الجنة والنار، فيقتص لبعضهم من بعض، فإذا هذبوا ونقوا اذن لهم في دخول الجنة) أهـ

وهذا الذي ذكره شيخ الإسلام قد جاء في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه في الصحيحين وفيه قوله صلى الله عليه وسلم : (ثم يؤتى بالجسر فيجعل بين ظهراني جهنم، قلنا يا رسول الله وما الجسر ؟ قال : مدحضة مزلة عليه خطاطيف وكلاليب وحسكة مفلطحة لها شوكة عقيفاء تكون بنجد يقال لها السعدان، يمر المؤمن عليها كالطرف وكالبرق وكالريح وكأجاويد الخيل والركاب فناج مسلّم، وناج مخدوش في نار جهنم حتى يمر آخرهم يسحب سحباً...)

وفيهما من حديث أبي هريرة (ويضرب الصراط بين ظهراني جهنم فأكون أنا وأمتي أول من يجيزها ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل، ودعوى الرسل يومئذ : اللهم سلِّم سلِّم ...) وقال عن الكلاليب : (فإنها مثل السعدان غير أنه لا يعلم ما قدر عظمها إلا الله عزوجل، تخطف الناس بأعمالهم فمنهم الموبق بعمله والموثق بعمله ومنهم المخردَل أو المجازى)

وقد قال الله تعالى : (وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا * ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا)

وقول شيخ الإسلام ابن تيمية في النظم (يمد فوق جهنم) دقيق جاء موافقاً لما في هذه الأحاديث بأن الجسرلا يكون موجوداً قبل ذلك بل يؤتى به ويضرب عند المرور عليه .

وقوله (فموحد ناج وآخر يهمل) لم يبين المراد بقوله (آخر) هل يدخل فيه الكفار أم هم عصاة المؤمنين .؟. وكذا في الواسطية قال : (يمر الناس على قدر أعمالهم) لكن قوله على قدر أعمالهم يشعر بأن المراد به هم المؤمنون وقد رجح بعض العلماء هذا وقالوا : لأن الكفار قد ذهب بهم إلى النار قبل الصراط فلا يمرون على الصراط .

وروى الإمام الترمذي عن عبد الله بن مسعود (وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (يرد الناس كلهم ثم يصدرون عنها بأعمالهم) وفي تفسير ابن كثير قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله تعالى (وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا) : وورود المسلمين المرور على الجسر بين ظهرانيها، وورود المشركين أن يدخلوها)

فورود المؤمنون هو المرور على الصراط وورود الكفار هو دخول جهنم كما قال تعالى {إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ} ﴿٩٨﴾ سورة الأنبياء، وقال تعالى عن فرعون (يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ).

وقال تعالى : {وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا} ﴿٨٦﴾ سورة مريم

وقوله في النظم : (فموحدٌ ناجٍ) فيه فائدة وتنبيه إلى عظمة التوحيد وأن عليه مدار النجاة كما قال تعالى : (فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا) فهو عروة النجاة الوثقى التي لا تنفصم فمن تمسك به نجا وإن كان عنده من المعاصي ما عنده فمصيره إلى النجاة عاجلاً أو أجلا .

وعن معاذ بن جبل قال : كنت رديف النبي صلى الله عليه وسلم على حمار فقال لي : (يا معاذ أتدري ما حق الله على العباد ؟ وما حق العباد على الله ؟) قلت : الله ورسوله أعلم، قال : (حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا، وحق العباد على الله : أن لا يعذب من لا يشرك به شيئا) أخرجاه في الصحيحين

وقول الشيخ : (فإذا عبروا عليه، وقفوا على قنطرة بين الجنة والنار...) والقنطرة هي الجسر الصغير... وهذه القنطرة قبيل الجنة لأجل تنقية قلوب أهل الجنة من أي غلّ أو تحامل ولرد الحقوق لأهلها حتى يدخلوا الجنة وليس في قلوبهم غلّ كما قال تعالى : {وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ} ﴿٤٧﴾ سورة الحجر.

ومن فوائد الإيمان بهذا أن يستقيم المرء على صراط الله المستقيم وأن يسارع في الخيرات ويسابق إليها حتى يكون عبوره للصراط أسرع وأيسر وأن يحفظ قلبه وينقيه من الغل على عباد الله المؤمنين وأن يدعو بقوله تعالى : (وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ).

***

١٣- والنـــارُ يصـــلاها الشـــقيُّ بحكمـــةٍ   وكـــذا التقـــيُّ إلـــى الجنـــان سَـــيَدْخُلُ

والجنة والنار موجودتان الآن، خلقهما الله، والمعتزلة ينكرون ذلك ويقولون ما الداعي لخلقها ووجودها قبل الحاجة إليها وهذا من تقديم العقل عندهم على النقل،

ومع أننا يكفي عندنا النقل الذي جاء بذلك إلا أننا نقول قد ثبت أيضا أن أرواح الشهداء تسرح في الجنة وأنهارها وأن المؤمن يرى في قبره مقعده من الجنة والكافر يرى مقعده من النار وغير ذلك من الأخبار والأمور التي تدل على فوائد وجود الجنة التي ذكر الله تعالى أنه قد أعدها للمتقين فهي موجودة مخلوقة، قال تعالى: (أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ).

وفي الحديث الذي يرويه الإمام أحمد وغيره عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لما خلق الله الجنة قال لجبريل : إذهب فانظر إليها فذهب فنظر إليها، ثم جاء فقال : أي ربّ وعزتك لا يسمع بها أحد إلا دخلها، ثم حفها بالمكاره، ثم قال : يا جبريل اذهب فانظر إليها، فذهب ثم نظر إليها ثم جاء فقال : أي رب وعزتك لقد خشيت أن لا يدخلها أحدٌ، فلما خلق الله النار، قال : يا جبريل اذهب فانظر إليها، فذهب فنظر إليها، ثم جاء فقال : وعزتك لا يسمع بها أحد فيدخلها، فحفها بالشهوات ثم قال : يا جبريل اذهب فانظر إليها فذهب فنظر إليها فقال : أي رب وعزتك لقد خشيت أن لا يبقى أحدٌ إلا دخلها)

فهذا الحديث أيصا صريح بأن الجنة والنار موجودتان مخلوقتان.

وقد قال تعالى عن النار: (أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ) وقال: {إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا* خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا }

فالنار قد أعدت للكافرين وإن كان قد يدخلها عصاة المؤمنين ولكن هي ليست دارهم بل يعذبون فيها بقدر ذنوبهم ثم مصير الموحدين إلى الجنة، أما الكافر والمشرك فلا يخرج منها أبداً وقد ذكر الله تعالى تأبيد عذاب الكفار في النار في ثلاثة مواضع من القرآن منها آية الأحزاب أعلاه والأخرى في سورة النساء آية رقم ١٦٩ قال تعالى : {إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا}، والثالثة في سورة الجن آية رقم ٢٣ : (وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا) ولاشك أن هذا التعذيب والتأبيد من حكمة الله تعالى كما قال الشيخ في النظم (والنار يصلاها الشقي بحكمة)، وذكر الحكمة هنا مأخوذ من قولة تعالى (قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ) الأنعام ١٢٨.

فالمؤمن الذي يستحق بذنوبة قدراً من العذاب ينقى بهذا العذاب ويطهر حتى يكون أهلا لدخول الجنة .

والمشرك والكافر في دوام عذابه حكمة كذلك ولا شك أن من الحكم التي نعرفها أن عذاب الكفار ؛ مما يشاهده أهل الجنة ويحمدون الله على أن نجاهم منه وهومما تقر به أعينهم برؤية أعدائهم ومن عذبوهم وقتلوهم وحاربوهم لدينهم وهم يعذبون جزاءا وفاقا، {قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴿٦١﴾} سورة الصافات

وقال تعالى: {وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ} ﴿٤٤﴾ سورة الأعراف.

وقد أخطأ الشيخ ابن القيم بإنكار أبدية النار واختياره أن عذابها ينتهي ونصر القول بفنائها مدعياً أن لا حكمة لبقائها بعد أن تأخذ النار مأخذها من أهلها لأن الله سبحانه ليس يشتفي بعذاب عبادة ما يشتفي المظلوم من ظالمة بل يعذب من يعذبه طهرة له ومصلحة له .. واستدل لنصرة مذهبه ببعض الأحاديث الضعيفة وبعض الآثار عن الصحابة والتابعين التي تشير إلى أنه ليأتين على جهنم يوم تصفق فيه أبوابها ليس فيها أحد وذلك بعد أن يلبثون فيها أحقابا ..

حكى ذلك عن عبدالله بن مسعود وعمر وأبي هريرة وغيرهم وهي آثار حملها العلماء على عصاة الموحدين .

وقد ناضل الشيخ ابن القيم في كتابه (حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح) وكتابه (شفاء العليل) ليعمم هذه الآثار ويدخل فيها عموم أهل النار مع أنه قرر عند سرده أحاديث خلود أهل النار وتأبيد عذابهم أنه لا يقول بخروجهم منها وهي باقية ؛ بل يفنون بها ولذلك قال (فالفرق بين من يخرج من الحبس وهو حبس على حاله، وبين من يبطل حبسه بخراب الحبس وانتقاضه) !! والآثار التي استدل بها لا تدل على انتقاض النار وفنائها بل فيها أنها تخلو وتصفق أبوابها ليس فيها أحد، فهي تناقض ما قرره ومع ذلك فقد فسرها أهل السنة على فراغ

طبقات عصاة الموحدين وأماكنهم ... لأن مصيرهم إلى الجنة ولا بد فالنار ليست دارهم الدائمة .

قال الحافظ الحكمي في معارج القبول في آخر كلامه على شروط (لاإله إلا الله) : (.. النار التي أعدت للكافرين التي لا يخرج منها من دخلها، وهي ما عدا **الطبقة العليا من النار التي يدخلها بعض عصاة أهل التوحيد ممن شاء الله تعالى عقابه وتطهيره بها على قدر ذنبه ثم يخرجون فلا يبقى فيها أحد**) أهـ

وعلى كل حال فرغم استقصاء ابن القيم لأدلة المسألة ورده على المخالفين له فيها وانتصاره وترجيحه لاختياره فقد ختم مبحثه بقوله : (فإن قيل : إلى أين انتهى قدمكم في هذه المسألة العظيمة الشأن ... ؟ قيل : إلى قوله تبارك وتعالى :(إن ربك فعال لما يريد) وإلى هنا قدم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب فيها حيث ذكر دخول أهل الجنة الجنة وأهل النار النار ... وقال : (ثم يفعل الله بعد ذلك ما يشاء) أهـ . فهل توقف في المسألة بعد ذلك كله ؟ الله أعلم .

وإنما عرجنا على هذا هنا مع أن المنظومة لشيخ الإسلام وليست لابن القيم وذلك لكي لا يغتر طالب الحق بهذه المقالة إذا قرأها لهذا الإمام العلامة .. وليعلم أنه لا معصوم بعد النبي صلى الله عليه وسلم، وأن الحق ضالتنا لا نقلد في مخالفته أحدا مهما عظمناه ووقرناه واحترمناه وتتلمذنا على كتاباته .

هذا واعلم أن الشيخ رحمه الله قد فرق في حادي الأرواح بين قوله هذا الذي اختاره بناءً على الآثار التي ظن أنها تنصره، وبين أقاويل أهل البدع الأخرى التي أنكرها ورد عليها ؛ سواء القول بفناء الجنة والنار كليها فقد ذكر أنه قول جهم بن صفوان إمام المعطلة الجهمية، وبين أنه لا سلف له به من أهل السنة وأنه قد أنكره عليه وعلى أتباعه أئمة الإسلام وكفروهم به .

وذكر قول أبي الهذيل شيخ المعتزلة الذي قال بفناء حركات أهل الجنة والنار حتى يصيروا في سكون دائم لا يقدر أحد منهم على حركة مع قوله ببقاء أهل الجنة والنار.

وبين أن القول بفناء الجنة والنار قول مبتدع لم يقله أحد من الصحابة ولا التابعين ولا أحد من أئمة المسلمين، والذين قالوه إنما تلقوه عن قياس فاسد يقتضي امتناع دوام الفعل وهو ما بنوا عليه القول بخلق القرآن وتعطيل الصفات .

وقال رحمه الله عند كلامه على أبدية النار ودوامها : (وأما أبدية النار ودوامها فقال فيها شيخ الإسلام : فيها قولان معروفان عن السلف والخلف، والنزاع في ذلك معروف عن التابعين) أهـ وهذا النقل عن شيخ الإسلام لا يعني توقفه في المسألة أو قوله بفناء النار كما ادعاه عنه بعض المتأخرين الذين يبغضونه لنصرته للسنة وذمه لبدعهم فزعموا أنه قال بفناء النار، وهذا لا يثبت عنه بل الثابت عنه بخلافه فقد قال جواباً على سؤال عن حديث : سبعة لا تموت ولا تفنى ولا تذوق الفناء : النار وسكانها، واللوح والقلم والكرسي والعرش(١٨/١٧٤)

(هذا الخبر بهذا اللفظ ليس من كلام النبي صلى الله عليه وسلم وإنما هو من كلام بعض العلماء **وقد اتفق سلف الأمة وأئمتها وسائر أهل السنة والجماعة على أن من المخلوقات ما لا يعدم ولا يفنى بالكلية كالجنة والنار** والعرش وغير ذلك ولم يقل بفناء جميع المخلوقات إلا طائفة من أهل الكلام المبتدعين كالجهم بن صفوان ومن وافقه من المعتزلة ونحوهم، وهذا قول باطل يخالف كتاب الله وسنة رسوله وإجماع سلف الأمة وأئمتها ...) أهـ

فتأمل قوله:(وقد اتفق سلف الأمة وأئمتها وسائر أهل السنة والجماعة على أن من المخلوقات من ما لايعدم ولا يفنى بالكلية كالجنة والنار ...) فإنه صريح .

وأمة محمد هي أول الأمم دخولا الجنة كما في صحيح مسلم عن أبي هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (نحن الآخرون الأولون يوم القيامة ونحن أول من يدخل الجنة)

وقال شيخ الإسلام في الواسطية (وأول من يستفتح باب الجنة النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وأول من يدخل الجنة من الأمم أمته)

- وذلك أن للنبي صلى الله عليه وسلم ثلاث شفاعات يوم القيامة :

الشفاعة الأولى : وهي خاصة به لا يشاركه فيها أحد ؛ وهي هذه التي ذكرها شيخ الإسلام ؛ شفاعه لأهل الجنة بدخول الجنة فإنه أول من يستفتح باب الجنة كما في صحيح مسلم (أنا أول شفيع في الجنة) وفي لفظ (أنا أول من يقرع باب الجنة) وفي لفظ فيه أيضاً : (آتي باب الجنة يوم القيامة فأستفتح فيقول الخازن : من أنت ؟ فأقول : محمد، فيقول : بك أمرت لا أفتح لأحد من قبلك)

وقد استدل لذلك بزيادة الواو بقوله تعالى : (حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا) الزمر ٧٣ فإنه لم يقل كما قال في النار (حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا) الزمر ٧١، بل زاد الواو وفيه

أشارة إلى أن هناك شيئا يكون قبل فتحها وهو شفاعة نبينا صلى الله عليه وسلم في فتحها كما صرح في الأحاديث .

وأبواب الجنة ثمانية كما جاء في حديث مسلم فيمن أسبغ الوضوء وتشهد : (إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء).

وقد ورد ذكر الخلود مع التأبيد لأهل الجنة في ثمانية مواضع بعدد هذه الأبواب :

في النساء آية ٥٧ (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا).

وآية ١٢٢النساء : (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا)

وفي المائدة ١١٩ : (قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا)

وفي التوبة ٢٢: (خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ)

والتوبة١٠٠ : (وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

وفي التغابن ٩ : (يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

وفي الطلاق ١١ : (وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا)

وفي البينة ٨ : (جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا)

وإن شئت فزد عليها موضعا دون التصريح فيه بالجنة وهو في الكهف ٣ : (مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا) .

وأما أبواب النار فهي سبعة كما جاء في القرآن : (لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ) وفي الحديث: (الجنة لها ثمانية أبواب والنار لها سبعة أبواب)

وفي زيادة أبواب الجنة على عدد أبواب النار بيان أن رحمة الله أوسع، ويدل ذلك أيضاً أن الجنة يبقى فيها فضل عمن دخلها من أهل الدنيا فينشئ الله لها أقواماً فيدخلهم الجنة كما ثبت ذلك في الصحيحين من حديث أنس وفيهما مما يرويه النبي صلى الله عليه وسلم عن ربه : (إن رحمتي سبقت غضبي).

وأما النار فلا تزال يلقى فيها وهي تقول : هل من مزيد ؟ فلا تمتلئ فيضع الله عز وجل عليها قدمه [1] فينزوي بعضها إلى بعض وتقول : قط قط .

وللجنة درجات كما في الحديث الذي يرويه ابن ماجة والحاكم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (الجنة مائة درجة مابين كل درجتين كما بين السماء والأرض والفردوس أعلى درجات الجنة ...)

وللنار دركات كما في قوله تعالى (إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ).

وقد ذكر شيح الإسلام في الواسطية الشفاعات الأخرى فقال (وله صلى الله عليه وسلم ثلاث شفاعات :

اما الشفاعة الأولى : فيشفع في أهل الموقف حتى يقضى بينهم بعد أن يتراجع الأنبياء .....

وأما الشفاعة الثانية : فيشفع في أهل الجنة، أن يدخلوا الجنة، وهاتان الشفاعتان خاصتان له .

١ كذا في البخاري (٧٤٤٩) (حتى يضع فيها قدمه فتمتلئ.....)

وفي مسلم (٣٥_٢٨٤٦) (فأما النار فلا تمتلئ فيضع قدمه عليها ...)

فإما أن يفسر ما في البخاري بلفظ مسلم أو يجرى على طريقة أهل السنة بتفويض الكيفية لله ومن ثم فلا تلزمنا أي لوازم لا تليق بكمال الرب وجلاله .

وأما الشفاعة الثالثة : فيشفع فيمن استحق النار، وهذه الشفاعة له ولسائر النبيين والصديقين وغيرهم، فيشفع فيمن استحق النار أن لا يدخلها، ويشفع فيمن دخلها أن يخرج منها ويخرج الله من النار أقواماً بغير شفاعة بل بفضلة ورحمته .) أهـ

وهناك شفاعة ثالثة خاصة بالنبي صلى الله عليه وسلم ؛ وهي شفاعته في عمه أبي طالب كما في الصحيحين في تخفيف العذاب عنه لا في الخروج منه فيجعل في ضحضاح من النار يبلغ كعبيه يغلي منه دماغه، قال صلى الله عليه وسلم : (ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار)

فالشفاعات على هذا أربعة ؛ ثلاث منها خاصة بالنبي صلى الله عليه وسلم وهي : الشفاعة في أهل الموقف ليقضى بينهم . والشفاعة لأهل الجنة ليفتح لهم بابها، والشفاعة في عمة أبي طالب لتخفيف العذاب عنه .

والرابعة عامة له ولغيره وهي شفاعتة فيمن استحق النار أن لا يدخلها وفيمن دخلها أن يخرج منها .

وهذه الشفاعة ينكرها المعتزلة والخوارج لأن مذهبهما في فاعل الكبيرة إن مات عليها أنه خالد مخلد في نار جهنم والخوارج تكفره والمعتزلة تجعله في منزلة بين المنزلتين .

***

١٤- ولكّـلِ حَـيٍ عاقـلٍ فـي قبـرهِ عمـلٌ يُقارِنــه هنــاك ويُســألُ

قال شيخ الإسلام في الواسطية : (ومن الإيمان باليوم الآخر، الإيمان بكل ما أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم مما يكون بعد الموت فيؤمنون بفتنة القبر وبعذاب القبر ونعيمه، فأما الفتنة، فإن الناس يمتحنون في قبورهم، فيقال للرجل : من ربك ؟ وما دينك ؟ ومن نبيك ؟ فـ (يثبت الله الذين ءامنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا والآخرة) فيقول المؤمن ربي الله، والإسلام ديني، ومحمد صلى الله عليه وسلم نبيي . وأما المرتاب فيقول : هاه هاه :لا أدري، سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته، فيضرب بمزربة من حديد، فيصيح صيحة يسمعها كل شيء إلا الإنسان، ولو سمعها الإنسان، لصعق ثم بعد هذه الفتنة إما نعيم وإما عذاب) أهـ .

وعذاب القبر وفتنته من عقيدة أهل السنة والجماعة تظاهرت به نصوص الكتاب والسنة ...

فمن القرآن الآية التي ذكرها شيخ الإسلام (يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ) فإن قوله (وَفِي الْآخِرَةِ) يدخل فيه عذاب القبر كما ثبت ذلك في الصحيحين من حديث البراء بن عازب مرفوعا .

ومن ذلك قوله تعالى في آل فرعون : (النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا)

وهذا في القبر وقبل قيام الساعة بدليل قوله تعالى بعده: (وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ) غافر ٤٦.

ومن ذلك قوله تعالى (وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ).

فقوله تعالى (اليوم) (ال) للعهد الحضوري، أي اليوم الحاضر ومن ذلك قوله تعالى (الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ) النحل ٣٢، وذلك عند الوفاة .

ومن ذلك قوله تعالى : {وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} ﴿٢١﴾ سورة السجدة، قال البراء بن عازب ومجاهد وأبوعبيدة : يعني به عذاب القبر. وروي ذلك عن ابن عباس كما ذكره ابن القيم في كتاب الروح ورد على من أنكره بدعوى أنه لو كان المقصود به عذاب القبر فكيف يقول (لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) وحملوه على أن المراد به مصائب الدنيا وما أصابهم من القتل والأسر يوم بدر وغيره ..

ورد ابن القيم على ذلك بأن قول ابن عباس يدل على فقهه وعلمه وقد دعا له النبي صلى الله عليه وسلم لأن قوله تعالى (مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى) يدل على ان العذاب الادنى أنواع منه ما يفيد في الاعتبار وينفع للمراجعة والتوبة والرجوع كالمصائب وما ذكروه، ومنه ما لاينفع معه الرجوع .. فالعذاب الأدنى أنواع يدخل فيه عذاب القبر وهو منه، وهذا معنى كلامه رحمه الله أوردته من الذاكرة .

ومن ذلك قوله تعالى (سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ) التوبة ١٠١

قال ابن مسعود وأبو مالك وابن جريج والحسن البصري وسعيد وقتادة وابن اسحاق .. أن المراد بالمرتين عذاب الدنيا وعذاب القبر ثم يردون إلى عذاب عظيم وهو عذاب النار .

أما السنة فمتواترة في إثبات عذاب القبر ونعيمه : منها ما ثبت في الصحيحين من حديث ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم مر بقبرين فقال : (إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير، ثم قال : بلى أما أحدهما فكان يسعى بالنميمة وأما الآخر فكان لا يستتر من بوله ....)

ومنها حديث البراء ابن عازب الطويل الذي تقدمت الإشارة إليه ..

ومنها حديث أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (العبد إذا وضع في قبره وتولى وذهب أصحابه حتى أنه ليسمع قرع نعالهم أتاه ملكان فأقعداه فيقولان له : ما كنت تقول في هذا الرجل محمد صلى الله عليه وسلم ؟ فيقول : أشهد أنه عبد الله ورسوله، فيقال: انظر إلى مقعدك من النار أبدلك الله به مقعداً من الجنة .قال النبي صلى الله عليه وسلم : فيراهما جميعا) الحديث رواه البخاري ومسلم عن قتادة

ولمسلم عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (لولا أن تدافنوا لدعوت الله أن يسمعكم من عذاب القبر الذي أسمع)

وفي الصحيحين عن عبد الله بن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعلمهم هذا الدعاء كما يعلمهم السورة من القرآن قولوا : (اللهم إنا نعوذ بك من عذاب جهنم، وأعوذ بك من عذاب القبر ...)

وغير ذلك من الأحاديث

ومع ذلك فقد أنكر عذاب القبر طوائف من المبتدعة الذين يقدمون العقول على النقول كالمعتزلة .

وقول شيخ الإسلام في النظم (ولكل حيٍّ عاقلٍ) يفسر قوله في الواسطية (فإن الناس يمتحنون في قبورهم) أهـ

فقوله (ولكل حي) فيه أن السقط الذي يولد ميتاً لا يفتن وقوله (عاقل) يخرج به المجنون ومن لا يعقل من الأطفال، وهذه المسألة محل خلاف بين أهل العلم أعني عدم فتنة غير

العاقل فقد قال شيخ الإسلام في الفتاوى (أما من ليس مكلفاً كالصغير والمجنون فهل يمتحن في قبره ويسأله منكر ونكير ؟ [1]

على قولين للعلماء :

أحدهما : أنه يمتحن وهو قول أكثر أهل السنة، ذكره أبو الحسن بن عبدوس عنهم وذكره أبو حكيم النهروان وغيرهما ..

والثاني : أنه لا يمتحن في قبره، كما ذكره القاضي أبو يعلى وابن عقيل وغيرهما، قالوا : لأن المحنة إنما تكون لمن يكلف في الدنيا .

ومن قال بالأول يستدل بما في الموطأ عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم ؛ صلى على صغير لم يعمل خطيئة، فقال : (اللهم قهِ عذاب القبر وفتنة القبر) وهذا يدل على أنه يفتن .

وأيضاً فهذا مبني على أن أطفال الكفار الذين لم يكلفوا في الدنيا يكلفون في الآخرة كما وردت بذلك أحاديث متعددة . [2] وهو القول الذي حكاه أبو الحسن الأشعري من أهل السنة والجماعة أهـ (٤/ ٢٨١) الفتاوى، وذكر شيخ الاسلام في فتوى سابقة أن هذا (فيه قولان في مذهب أحمد وغيره) ثم ذكر القولين، ولم يختر ولم يرجح .

---

١ ورد تسمية الملكين بذلك في حديث رواه الطبراني في الأوسط، وقد أنكر هذه التسمية بعض العلماء وضعف الحديث وزعم أن الاسمين لا يناسبان الملائكة الذين أثنى الله على صفاتهم واستدل من صحح الحديث بقول إبراهيم لأضيافه الملائكة : (إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ) وذلك من حيث أنه لا يعرفهم ويعجب لعدم أكلهم أو لعدم ظهور آثار السفر عليهم مع أنهم ليسوا من أهل البلد وذلك كما في حديث مسلم عن عمر بن الخطاب في وصف الهيئة التي جاء بها جبريل عليها (رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر لا يُرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد ..) فلا شك أن هذا الأمر مستغرب مستنكر والميت يتفاجأ بالملكين ولا يعرفهما .

٢ انظر بعض ذلك في مجمع الزوائد (٢١٦/٧) قال شيخ الإسلام في درء التعارض (٨/ ٤٠١) : (وقد جاءت بذلك عدة آثار مرفوعة إلى النبي صلى الله وعن الصحابة والتابعين بأنه في الآخرة يمتحن أطفال المشركين وغيرهم ممن لم تبلغه الرسالة في الدنيا،وهذا تفسير قوله صلى الله عليه وسلم (الله أعلم بما كانوا عاملين) وقال (٣٧/٨ع): (وقد روي به آثار متعددة عن النبي صلى الله عليه وسلم حسان يصدق بعضها بعضا) أهـ نقلت هذا لأن الأحاديث التي أشرت إليها في المجمع لا تخلو من مقال .

- ومن لا يفتنون في القبور :

- الشهداء : فقد ورد في فضائل الشهادة أن (للشهيد عند الله سبع خصال) ...فذكر منها (ويجار من عذاب القبر، ويأمن من الفزع الأكبر ...) رواه أحمد وغيره، وفي الحديث الذي يرويه النسائي (كفى ببارقة السيوف على رأسه فتنة)

- واستدل بعض العلماء بهذا أن الأنبياء والصديقين لا يفتنون لأنهم خير من الشهداء مرتبة فمن باب أولى أن لا يسألوا ..

ولأن الأنبياء يسأل عنهم ولا يسألون، فيقال للميت (من نبيك ..؟)

- ومن لا يفتنون في قبورهم أيضاً المرابطون كما في صحيح مسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه، وإن مات جرى عمله الذي كان يعمله وأجري عليه رزقه، وأمن الفتان)

وأصل الرباط : كما ذكر شيخ الإسلام أن تكون في مكان بحيث تخاف العدو ويخافونك أوتحاذرهم ويحاذرونك ..

قال : (فإن الرباط هو المقام بمكان يخيفه العدو، ويخيف العدو. فمَن أقام فيه بنية دفع العدو فهو مرابط، والأعمال بالنيات)

ولذلك فمعناه والله أعلم أوسع من المعنى الحرفي وهو الإقامة في ثغور المسلمين وأطراف دولتهم لحفظها من العدو الخارجي، فحفظها من فساد العدو الداخلي والمرابطة على ثغور التوحيد والصدع بملة إبراهيم ومراغمة أهل الشرك داخل في ذلك، كيف وقد جعل النبي صلى الله عليه وسلم من الرباط (انتظار الصلاة بعد الصلاة) رواه مسلم، فالرباط والثبات لنصرة الدين من باب أولى، وقد قال تعالى : {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} ﴿٢٠٠﴾ سورة آل عمران .

والإيمان بفتنة القبر وما فيه من امتحان وسؤال ونعيم وعذاب، يجعل المسلم يستعد لذلك ويحقق الأصول الثلاثة التي سيمتحن فيها وأن يحرص على أن يكون ممن لا يمتحنون كالشهداء والمرابطين ونحوهم ممن اثبتوا صدقهم ببذل النفس والعمر والمال لله تعالى فلم يُحتج إلى امتحان صدقهم بعد ذلك .

***

١٥- هــذا اعتقــادُ الشــافعيِّ ومالــكٍ وأبــي حنيفــةَ ثــم أحمــدَ يُنْقَــلُ

هذا البيت مما يرجح أن النظم لشيخ الإسلام فهذه طريقته في الثناء على الأئمة الأربعة ونسب عقيدة أهل السنة إليهم جميعا، مع معرفته بما عند أبي حنيفة من مخالفة لهذه العقيدة في أبواب الإيمان .

ولكن المتتبع لطريقة شيخ الإسلام في الفتاوى يراه دوما يوقّر الأئمة الأربعة جميعا ويعظمهم وينسبهم إلى اعتقاد أهل السنة ويبين دوما أنهم على هذا الاعتقاد وفي جملتهم أبو حنيفة ترغيباً لأتباعهم باعتقاد أهل السنة والجماعة وحثاً لهم على التزامه وعدم الانحراف عنه .

كنحو قوله في الفتاوى (٥/٢٥٦) : (الحمد لله اعتقاد الشافعي رضي الله عنه واعتقاد سلف الإسلام كمالك والثوري والأوزاعي وابن المبارك وأحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه وهو اعتقاد المشايخ المقتدى بهم كالفضل بن عياض وأبي سليمان الداراني وسهل بن عبد الله التُّستُري وغيرهم فإنه ليس بين هؤلاء الأئمة وأمثالهم نزاع في أصول الدين .

وكذلك أبو حنيفة رحمة الله عليه فإن الاعتقاد الثابت عنه في التوحيد والقدر ونحو ذلك موافق لاعتقاد هؤلاء واعتقاد هؤلاء هو ما كان عليه الصحابة والتابعون لهم بإحسان، وهو ما نطق به الكتاب والسنة) أهـ

بل ينقل أحياناً عنه بوجه الخصوص ..

فتراه يقول في الفتاوى (٥/١٤٠) : (وفي كتاب الفقه الأكبر المشهور عن أبي حنيفة يروونه بأسانيد عن أبي مطيع بن عبد الله، قال : سألت أبا حنيفة عن الفقه الأكبر فقال : لا تكفرن أحد بذنب ... إلى أن قال عمن قال : لا أعرف ربي في السماء أم في الأرض ؛ فقد كفر لأن الله يقول : (الرحمن على العرش استوى) وعرشه فوق سبع سماوات قلت : فإن قال : إنه على العرش، لكن لا أدري العرش في السماء أم في الأرض قال : هو كافر، وإنهُ يدعى من أعلى لا من أسفل) أهـ

وكل ذلك يفعله ليبيّن لأتباع الأئمة ولجمهور المسلمين أن عقيدة أهل السنة محل اتفاق بين العلماء وأن أئمتهم جميعا متفقون على أهم مسائل أصول الدين فلا ينبغي الانحراف عن

سبيلهم في هذا وإلا فشيخ الإسلام ليس ممن يخفى عليه ما عند أبي حنيفة من إرجاء الفقهاء ..

قال في كتاب الإيمان (٥٠٧/٧) : (وهؤلاء المعروفون مثل حماد بن أبي سليمان وأبي حنيفة وغيرهما من فقهاء الكوفة كانوا يجعلون قول اللسان واعتقاد القلب من الإيمان وهو قول أبي محمد بن كلاب وأمثاله) أهـ

وأحياناً لا يسميه كما في قوله : (وأنكر حماد بن أبي سليمان **ومن اتبعه** [١] تفاضل الإيمان ودخول الأعمال فيه والاستثناء فيه وهؤلاء من مرجئة الفقهاء .

وأما إبراهيم النخعي إمام أهل الكوفة شيخ حماد بن أبي سليمان وأمثاله ومن قبله من أصحاب ابن مسعود كعلقمة والأسود فكانوا من أشد الناس مخالفة للمرجئة وكانوا يستثنون في الإيمان، لكن حماد بن أبي سليمان خالف سلفه **واتبعه من اتبعه)** أهـ الفتاوى (٥٠٦/٧)

ولذلك تراه رحمه الله تعالى وإن أدخل أبا حنيفة في اعتقاد أهل السنة، إلا إنه عند التفصيل يقول في سياق كلامه على اتفاق أئمة أهل السنة على أصول الدين كنحو كلامه الذي سقناه آنفا : (وكذلك أبو حنيفة رحمة الله عليه فإن الإعتقاد الثابت عنه **في التوحيد والقدر ونحو ذلك** موافق لاعتقاد هؤلاء) أهـ

فتأمل دقة كلامه هنا : (في التوحيد والقدر ونحو ذلك) .

هذا واعلم أن ترتيب الأئمة في البيت لم يأتي بحسب وفياتهم ولا بحسب تقديم وتعظيم شيخ الإسلام لهم ..

فإنه أشد تعظيما للإمام أحمد ..

وترتيبهم من حيث الوفيات :

أبو حنيفة (ت ١٥٠) في بغداد ثم مالك (ت ١٧٩) في المدينة فالشافعي (ت ٢٠٤) في مصر فأحمد (ت ٢٤١ هـ)

---

١ من أشهر من اتبعه على ذلك أبو حنيفة فهو تلميذه .

ولكن هذا الترتيب الذي جاء في النظم متناسب مع وزن النظم ..

ومعلوم أن هؤلاء الأئمة برزوا وقُدّموا لا بفقههم وحده بل وبإمامتهم في الدين وصبرهم ويقينهم كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية عند قوله تعالى (وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون)

قال : (الصبر واليقين هما أصل التوكل) ونقل عن سفيان قوله : (بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين)

وقال : (لا يوصف باليقين إلا من اطمأن قلبه علماً وعملا، وإلا فإذا كان عالماً بالحق لكن المصيبة أو الخوف أورثه جزعاً لم يكن صاحب يقين) أهـ

ومعلوم أن هؤلاء الأئمة كانوا علماء عاملين عندهم من الصبر واليقين والثبات ونصرة الحق وتحمل ما يترتب على هذه النصرة من بلاء .. ما أهلهم ليكونوا أئمة للناس يهدونهم بأمر الله.. وخلد ذكرهم ورفع مقامهم بين الخلق..

وقد ابتلوا كل في زمانه وتعرض بعضهم للسجن ..

فامتحن الإمام أحمد وسجن ثمانية وعشرين شهرا وكان يصلي وينام والقيد في رجله، وضرب ليقول بخلق القرآن فثبت وأبى وأظهر الحق في وقت خالفه عليه أكثر الخلق، وفي زمن الواثق منع من الخروج للتدريس خمس سنوات حتى توفي الواثق

كما ضرب الإمام مالك ضربا شديداً بالسياط وأوذي في الله ولقوله الحق ؛ لأنه كان يحدث بحديث (ليس على المستكره يمين) حين أخذت بيعة المنصور كرها وبالأيمان على الناس ؛ فحدث به على رؤوس الأشهاد دون أن تأخذه في الله لومة لائم .

والإمام الشافعي حمل من اليمن واعتقل إلى بغداد بالقيد والاحتياط.

وأبو حنيفة حبس وضرب في زمن الخليفة المنصور على رفضه للقضاء وقيل أنه مات في الحبس، وقال الذهبي في السير (٤٠٣/٧) : (توفي شهيدا مسقيا) أهـ

وكذلك شيخ الإسلام ابن تيمية حبس في القاهرة والإسكندرية ومات محبوساً في قلعة دمشق .

***

١٦- فـــإن اتبعـــتَ ســـبيلَهم فمُوفّـــقٌ وإن ابتـــدعت فمـــا عَلَيْـــكَ مُعَـــوَّلُ

في خاتمة منظومة شيخ الإسلام يدعو الشيخ طالب العلم إلى منهج الإتباع ويحذره من الابتداع ولا يذكر أو يعرج على التقليد.. وذلك لأنه رحمه الله تعالى يرى أن : (التقليد بمنزلة أكل الميتة، فإن استطاع أن يستخرج الدليل بنفسه فلا يحل له التقليد) أهـ المجموع (٢٠ / ٢٠٤)

وهذا يدلك على أن القسمة ليست ثنائية كما يدعيها دعاة التقليد حين يقولون إما أن تكون مجتهداً أو مقلّداً، ثم يعسّرون الاجتهاد إن لم يغلقوا بابه بشروط تعسفية لا تجتمع في كثير من الجهابذة الأوائل فضلا عن المتأخرين، ويمنعون تجزئ الاجتهاد أو تبعضه ..

وقد ذكر الشنقيطي كلاماً وسطاً في شروط الإجتهاد فقال في شروط المجتهد :

١. الإحاطة بمدارك الأحكام المثمرة لها من كتاب وسنة وإجماع واستصحاب وقياس ومعرفة الراجح منها عند ظهور التعارض وتقديم ما يجب تقديمه منها كتقديم النص على القياس، والعدالة ليست شرطا في أصل الإجتهاد، وإنما هي شرط في قبول فتوى المجتهد [1]

والحق أنه لا مانع من تبعض الإجتهاد وأن شروطه ليست مستحيلة ولا تعجيزيه وأن القسمة ثلاثية ثنائية فهناك الإجتهاد والتقليد والإتباع .

فالإجتهاد : وهو في الإصطلاح : (بذل الفقيه وسعه بالنظر في الأدلة لأجل أن يحصل له الظن أو القطع بأن حكم الله في المسألة كذا .) أهـ مذكرة الشنقيطي

قال تعالى (يحكم به ذوا عدلٍ منكم)، وقال النبي صلى الله عليه وسلم : (إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر) رواه البخاري ومسلم

والتقليد : في اصطلاح الفقهاء : (قبول قول الغير من غير معرفة دليله)

والتقليد إنما هو للعامي ولم يخالف في جوازه للعامي إلا بعض القدرية [2]

١ تأمل فكم من المجروحين والمعطوبين من أحذية السلاطين اليوم يُصدّرون للفتوى وتقبل فتاواهم!

٢ قاله الشنقيطي في المذكرة .

أما الإتباع : فهو اتباع النصوص الشرعية وما دلت عليه، وقبولها من نقلتها فهو من معرفة الهدى بدليله وليس ذلك بتقليد .

كما قال ابن القيم في نونيته :

" العلم معرفة الهدى بدليله= ما ذاك والتقليد يستويان

وقال الشنقيطي : (واعلم أن قول الغير لا يطلق إلا على اجتهاده، أما ما فيه نصّ فلا مذهب فيه لأحد ولا قول فيه لأحد لوجوب إتباعها على الجميع فهو إتباع لا قول حتى يكون فيه تقليد ... فالأخذ بقول النبي صلى الله عليه وسلم أو بالإجماع لا يسمى تقليداً لأن ذلك هو الدليل نفسه)

وقد مدح شيخ الإسلام الإتباع بقوله بوصفه للمتبع (فموفقٌ)

ثم ذم الابتداع بقوله : (وإن ابتدعت فما عليك معول)

والابتداع : هو اختراع طريقة في الدين تضاهي الطريقة الشرعية سواء كان ذلك في العبادات أو في العقائد ...

وقسمها الشاطبي في الإعتصام إلى حقيقية وإضافية وكلاهما مذموم :

فالبدعة الحقيقية : هي التي لم يدل عليها دليل شرعي لا من كتاب ولا سنة ولا إجماع ولا استدلال معتبر عند أهل العلم لا في الجملة ولا في التفصيل ولذلك سميت بدعة لأنها شيء مخترع على غير مثال سابق، وإن كان المبتدع يأبى أن ينسب إليه الخروج عن الشرع بل هو مدع أنه داخل تحت مقتضى الأدلة .

أم البدعة الإضافية : فهي التي دل عليها الدليل من جهة الأصل فهي من هذه الجهة ليست مخترعة بالكلية كالحقيقية، ولكنها من جهة الكيفيات أوالأحوال أو التفاصيل لم يقم عليها دليل وليس لها متعلق إلا مثل ما للبدعة الحقيقية من دعوى المبتدع أنه غير خارج عن الأدلة . فسميت إضافية لأن لها شائبتان وطرفان فإنها من جهة الأصل مستندة إلى دليل، وبالنسبة للجهة الأخرى بدعة لأنها مستندة إلى شبهة لا إلى دليل أو أنها غير مستندة إلى شيء .

وذكر الشاطبي في الاعتصام عن ابن وضاح عن عبد الله بن مسعود قال : (اتبعوا آثارنا ولا تبتدعوا فقد كفيتم) .

وقد تقدم أن المبدلين المحدثين في دين الله يذادون عن حوض النبي صلى الله عليه وسلم ويمنعون من وروده في أحوج الأوقات إليه .. وأنه لا يرد إلا من جرّد الاتباع للرسول صلى الله عليه وسلم ولم يشرب في الدنيا إلا من معين سنته النقي، وأعرض عن السبل المعوجة والمناهج المنحرفة .

وفي الصحيحين من حديث عائشه أم المؤمنين : (من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد) قال الشاطبي في الاعتصام: (وهذا الحديث عده العلماء ثلث الإسلام)أهـ

فالبدعة مذمومة ولا يعوّل عليها في الهداية إلى طريق الحق لأنه كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : (كل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار)

ولذلك فليس في الدين بدعة ممدوحة .

قال ابن الماجشون : سمعت مالكاً يقول : (من ابتدع في الإسلام بدعة يراها حسنة فقد زعم أن محمداً صلى الله عليه وسلم خان الرسالة، لأن الله يقول : (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ) فما لم يكن يومئذ دينا، فلا يكون اليوم دينا .) من الاعتصام للشاطبي .

تم بحمد الله